١ – الشيطان

حقيقة أم وهم بين المادة والروح

الشيخ محمود سليمان رمضان

الكتاب: الشيطان حقيقة أم وهم بين المادة والروح

المؤلف: الشيخ محمود سليمان رمضان

موافقة وزارة الإعلام مديرية الرقابة رقم/١٠٣٨١٧/٢٦/١٠/٢٠٠٩م

الطبعة الثانية



الناشر: دار أعراف

سورية — طرطوس

٣٥٦٥٨١-٠٩٥٥٥١٢٩٥٩

كلمةٌ لا بد منها

كل الشكر لجميع إخواني الذين ساعدوني على إتمامِ هذا الكتاب، من خلالِ مناقشاتهم الجادّة واقتراحاتهم وآرائهم البنَّاءة.

ولكل من ساهم معي أيضاً من خلال تأمين بعض المصادر والوثائق.

ولا أنسى أن أشكر المفكر السوري الأستاذ فراس السواح لما قدَّمه وترجمه من وثائق وكتب، اطَّلعنا من خلالها على الكثير من أخبار الأديان عند الشعوب الماضية.

والشكر أيضاً لكل العاملين في دار أعراف للنشر ممثلين بالأستاذ علام عبد الهادي والباحثة رُبا حسين، لتشجيعهم لي على معالجة هذا الموضوع.

المؤلف

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ حمداً ننالُ بهِ رضاه، والشكر للهِ شكراً يقبله ويرضاه، الحمدُ للهِ الذي تفرّد بالأحدية، وهو خالق الأزواج كلّها، ليدّل على وحدانية ذاته وإن تعددت صفاته.

نسأله تعالى أن يصلّي على نبي الهدى والرحمة سيدنا محمّد وآله الأئمة الأطهار وعلى جميع النبيين والملائكة المقربين وأصحابه الأخيار المنتجبين أجمعين، وأن يفيض من نوامي صلواتهم وبركاتهم على أرواح المؤمنين أهل الإجابة والإقرار الذين أطاعوا وسلّموا لخليفته في الدارين.

فسبحان مَنْ كرَّمَ الإنسان وجعلهُ خليفةً في الأرض، وأَمرَ الملائكة بالسجود لهُ امتحاناً وابتلاءً، تعليماً للخلق وترغيباً بالطاعات، وتحذيراً لما تؤلُّ إليه المعصيات، وهو الذي فضّلهم بقولهِ تعالى: (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)**)(الإسراء).

وبقولهِ سبحانه: (**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)**)(الجاثية).

نحمدكَ يا مَنْ خلقتَ الخلقَ كلّه تفضلاً ورحمةً، وأوجدتَ الأضداد تمايزاً وتبايناً لأهلِ العقول والألباب من أهلِ الجهلِ والارتياب، فالظلمات والنور والليل والنهار والحر والقر والخير والشر ...الخ.

قال تعالى: (**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ(٢٠)**)(الروم).

وقال تعالى: (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٢٩)**)(الحجر).

وقال تعالى: (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)**)(التين).

وقال تعالى: (**خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)**)(الرحمن).

- جاءَ في معجم ألفاظ القرآن للأصفهاني تفسير كلمة **بشر:** البشرة ظاهر الجلد، والأدمة: باطنه، كذا قال عامَّةُ الأدباء وجمعها بشرٌ وأبشار، وعُبِّر عن الإنسان بالبشرِ: اعتباراً لظهور جلده من الشعر (أي بيان)، وخصَّ في القرآن كُلّ موضع اعتبر من الإنسان جثته وظاهره بلفظ البشر" نحو" قوله تعالى:

(**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا(٥٤)**)(الفرقان).

وقوله تعالى: (**قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(٢٠)**)(مريم).

وقوله تعالى: (**حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا** (**٣١**))(يوسف).

وقيل معناه : جمع لين الأدمة وخشونة البشرة.

– وجاء أيضاً تفسير **الناس:** قيل أصله أناسٌ: فحذف فاؤه لما أُدخل عليه الألف واللام، وقيل قُلب من نسي وأًصله إنسيان على إفعلان، وقيل أصله من ناس ينوس إذا اضطرب، وينست الإبل سقتها.

والناس قد يذكرُ ويراد به الفضلاء دون من يتناوله اسم الناس تجوزاً، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية وهو وجود العقل، والذكر، وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة بهِ.

– وقيل فيه أنَّ البشر هو الجسم الظاهر المتحرك وإذا تكلم عن العلوم والمعارف والعقل وغيرها من المعاني السامية والأخلاق سمي إنسان " كالعلوم الإنسانية " أمَّا الطب البشري للجسم، والنفسي للنفس وتفرعاتها...الخ.

فالله سبحانه كرَّم الإنسان إذْ خلقهُ من ترابٍ، ثم مراحل تكوينه من النطفةِ حتى الخلق الجديد بالبشر، ثم أفاض عليه العقل، وهو الميزان الذي منحه إيَّاه وكرَّمه به لأنَّه من خلاله يحكم الكون ويكون خليفةً لله، وقال بعضهم هذا سر نفخ الروح فيه، وعلى ما أعطاه يحاسبه إنْ خيراً بخير، وإن شراً بِشر، وبهذا العقل حارب الشيطان وأتباعه الذي تكبَّر على آدم، وجَهِلَ ما أخفاه ذلك الجسم من قوى العقل، فلذلك أصبح عدوّه الأول وبدأ معه رحلة الصراع.

لاحظ خطابه للعاقل في قوله تعالى: ﴿ **هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ(١٣٨)**﴾(آل عمران).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)**﴾(الأعراف).

إذاً أُنسنوا بالعقل وشُبهوا بالأنعام إذا عطلوه.

وقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١١٩)**﴾(هود).

لأنَّه احتجَّ عليهم بالعقل. لقولِهِ تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾**﴾(العنكبوت).

جاءِ عند المفسرين أنَّ " الافتتان " هو الاختبار والامتحان بكلِ شيء، ليتميَّز المطيع من العاصي.

وقال تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ(١٠٢)**﴾(البقرة).

وقال تعالى: (**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾**)(الأنعام).

أمَّا ما بيَّنه من عداوة الشيطان للإنسان إذْ قال سبحانه: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾**)(البقرة).

وقال تعالى: (**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آَدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾**)(يس).

وقال تعالى: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾**)(يوسف).

فالله سبحانه أوجد الإنسان حراً، وأعطاهُ القدرة على التمييز ليحكم ويفرّق بين الأشياء، لقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): لا تكن عبداً لغيرك وقد جعلك الله حراً.*[1] وبيَّن له سُبلَ العيش وطريق النجاة وحذَّره الشيطان وأتباعه، فبهذه الحرية الممنوحة لهُ حاسبه، وبها اختار الخير والهدى والحق مرشداً، وبها اختار الشرَّ طريقاً ومقصداً، والشهوات والغرائز دليلاً للردى، والله سبحانه يعلم حال الخلق قبل إيجادهم وما سيؤولون إليه بالأقوال والأفعال، لكنه عدلٌ لا يجور

[1] - نهج البلاغة.

وحكيمٌ لا يظلم، لا يحاسبهم بعلمِهِ فيهم بل بأفعالهم، وأقوالهم، وما كسبت أيديهم، ونواياهم الخيّرة، ليثبتَ عليهم حجته بعد أن بين لهم محجته.

لقوله سبحانه: (**أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾**)(البلد).

أعطاه الله العينين لينظر بهما ويبصر آثار الحكمة، واللسان والشفتين لينطق بهما بيان توحيده والخير، وبيَّن لهُ سبيل الخير والشر، وأمره بالخير والفضائل، ونهاهُ عن الشرِّ والرذائل، لقوله تعالى:

(**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠**)(النحل).

وقال تعالى: (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾**)(الإنسان).

وقال تعالى: (**قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾**)(الأنعام).

– جاء عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) قوله: أيّها الناس إنَّ الله تبارك وتعالى لما خلق خلقه أراد أن يكونوا على آداب رفيعة، وأخلاق شريفة فعلم أنَّهم لم يكونوا كذلك إلاَّ بأن يعرّفهم ما لهم وما عليهم، والتعريف لا يكون إلاَّ بالأمر والنهي، والأمر والنهي لا يجتمعان إلاَّ بالوعد والوعيد، والوعد لا يكون إلاَّ بالترغيب، والوعيد لا يكون إلاَّ بالترهيب، والترغيب لا يكون إلاَّ بما تشتهيه

أنفسهم وتلّذة أعينهم، والترهيب لا يكون إلاَّ بضد ذلك، ثم خلقهم في دارهِ، وأراهم طرفاً من اللذات ليستدلوا به على ما ورائهم من اللذات الخالصة التي لا يشوبها ألمٌ ألا وهي الجنة، وأراهم من الآلام الخالصة التي لا يشوبها لذة ألا وهي النار.*[2]

- وجاء في الحديث القدسي إنَّ الله سبحانه قال: يا ابن آدم خلقتك للبقاء وأنا حيٌّ لا أموت أطعني فيما أمرتُكَ وانتهِ عما نهيتُكَ أجعلك مثلي حياً لا تموت.*[3]

فمن سبب هذه الشرور ؟

هل خُلقتْ مع الإنسان ؟

أم جاءته في تجسيداته ؟

أم لضعف القوى العقلية والنفسية، لم يستطع تمّيّزها من غيرها ؟

هل إبليس هو المسؤول الأول عنها، وما دور أعوانه وأتباعه الشياطين فيها ؟

وكيف يستطيعون النفاذ إلى أعماقِ الإنسان وهل في كيانه عيون وأعوان للشيطان ؟

وما هي أسلحتهم ؟

---

[2] - نهج البلاغة.

[3] - الأحاديث القدسية.

وأين هو مرتعهم الخصب ؟

وهل للشيطان وجود في دورة الكون الأولى ؟

وهل له تأثير على عالم الملائكة والروح، أم سلطانه على عالم المادة فقط ؟

ولماذا خُصَّ الإنسان بعداوة الشيطان ؟

وبعد هبوطهما إلى الأرض مكان الصراع الحقيقي كيف استمرَ هذا الصراع في عالِم المادة وكيف سينتهي ؟

وهل الشرور الكونية من فعله، أم له تأثير فيها، أم أنَّ تأثيره اقتصر على الشرور الأخلاقية ؟

علماً أنَّ جميع الأديان والمعتقدات الوثنية والتوحيدية تقول: أنَّهُ سيتم التخلص من الشيطان نهائياً بتعاون قوى الخير في آخر الدَّور.

فما هو الشر وإبليس والشيطان...؟

وكيف نستطيع الخلاص منه...؟

وهل للدين والأخلاق دوراً في ذلك وما علاقة الأخلاق بالدين...؟

قال تعالى: (**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾**)(البقرة).

إذاً عِلمُ الخير بالمطلق عند الله سبحانه، ونحن لا نعلم إلاَّ بعض جهاته وجزئياته.

وقال تعالى: (**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)**)(الأنفال).

وقال تعالى: (**إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)**)(المعارج).

– فالشر: الذي يرغب عنه الكل، كما أنَّ الخير هو الذي يرغب فيه الكل، إذاً فالشر ضد الخير، والشر: السوء والفعل للرجل الشرير، وهو كل ما فيه ضرر وقبح.

والشرور أنواع: منها الشرور الكونية الطبيعية كالزلازل والبراكين والأعاصير والفيضانات والأوبئة والأمراض وغيرها، وهذه ناتجة عن عوامل كونية طبيعية ليس للمخلوقين علاقة في وجودها، إلاَّ أنَّ المخلوق يستطيع تفعيلها أكثر إذا ملك القدرة على ذلك، كالتفجيرات النووية واختبارات الجراثيم واللعب بالجينات الوراثية للكائنات الحية وغيرها، فالإنسان يستخدمها للخير ولصالح البشرية والخلقِّ، والشيطان يستخدمها لتدمير الكون وإخضاع البشرية لمصالحه ونزواته.

أمَّا الشرور الأخلاقية فهي الأعمال المتناقضة مع الأخلاق الإنسانية وهي التي نهت عنها كل الديانات الوثنية والتوحيدية تقريباً، كالقتل والسرقة والاغتصاب

والظلم والزنا وغيرها، فهذه شرور أخلاقية إنسانية، وهي المرتع الخصب لإبليس وجنوده لأنَّها ناجمةٌ من شهوات النفوس الشهوانية والغضبية والأمارة بالسوء، فمن خلالها يوسوس الشيطان للإنسان بأفعالِ الشر ويزينه له.

واختلف الكُتَّاب والباحثون في الشرِّ، هل هو إرادة إلهية حتمية على الخلق كما قال من يؤمنوا بالجبرية، وهذا تعطيل لدور العقل والحرية الممنوحة للإنسان. ومنهم من قال: أنَّه من نفس الإنسان كما أسلفنا.

ومنهم من قال: أنَّه يأتي من وجود قوة ما ورائية طاغية متمردة على أمر الله ممثلة بالشيطان لقوله تعالى: ﴿ **يا أبتِ لا تعبد الشيطان إنَّ الشيطان كان للرحمن عصيا (٤٤)**﴾(طه).

وهذا ما سنتكلم عنه لاحقاً. وسأحاول أن أختصر ما ورد عند الباحثين عن بدايةِ وجود الشرِّ والشيطان، بدءاً من المعتقدات القديمة وما دُوِّن عنها حتى الديانات التوحيدية، وما خلَّفته لنا من أخبار حول هذا الموضوع، والتي بلغت حدَّ النضج في المعتقد الإسلامي لكثرة ما ورد في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول (ﷺوآلهِ) من حضَّ على تهذيب النفس والأخلاق الفاضلة المؤدية مع الإيمان إلى الخلود في الجنان، وبينت أنَّ نوازع النفس الشريرة هي من وسوسة الشيطان وهذا ما سنأتي على ذكره أيضاً.

أخوكم الشيخ محمود سليمان رمضان

طرطوس شتاء/ ٢٠٠٨م/

– يقول الباحثون في التاريخ الديني والمثيولوجيا:

إنَّ تعليل الشر في الأديان الوثنية كان نتيجة تناقض أهواء الآلهة ومقاصدها، أي أنَّ الشرور كانت قبل أديان التوحيد هي نتيجة لوجود عدة آلهة – آلهة خيّرة، وأخرى شريرة —

أمَّا بعد اعتقاد التوحيد، وأنَّ الله الواحد هو صاحب القدرة والحكم والمعرفة والحضور، وأنَّه منبع الخير والعدل، فأخذوا يتساءلون عن علَّة الشر ولماذا ومن أين ولما سمح الله بهِ ؟ فتكلموا عن ثنويةٍ أخلاقية وهي متناقضة بين الخير والشر، ومنهم من قال بالقطبية على اعتبار أنَّها معتقد يقول بوجود ثنائية أصلية قوامها قطبان متعارضان ومتناقضان في كل شيء، ولا قيام لأحدهما في عالم المادة دون الآخر. والنموذج عن معتقد القطبية هو:

التاوية الصينية:

التي وضع أُسسها الفكرية المعلم " لاو – تسو " في القرن السادس قبل الميلاد يقول المعلم: لاو — تسو في الكتاب الوحيد المعزو إليه، بوجود مبدأ أزلي قديم يدعى بالتاو – والتاو ليس شخصية إلهية بل هو القاع الكلي للوجود، والحقيقة المطلقة التي يقوم بها كل نسبي، وعن هذا المبدأ الكلي صدرت قوتان مجردتان هما قوة الـ " يانغ " الموجبة، وقوة الـ " ين " السالبة، وبدوران هاتين القوتين على بعضهما نشأت الآلاف المؤلفة من كل شيء، تُمثّل قوة اليانغ باللون الأبيض

الذي يرمز إلى النور وقوة الين باللون الأسود الذي يرمز إلى الظلام، ولكنهما هنا لا يحملان أية دلالة قيمية أو أخلاقية، ولا فضل لواحدِهما على الآخر وبالتالي فإنَّ أحدهما لا يسعى إلى التغلب على الآخر أو إقصائه، لأنَّ مثل هذه الغلبة تعود بالكون إلى حالة الهيولى التي نشأ عنها.

ومن هذهِ الثنائيات أيضاً عبادات الخصب الكنعانية:

التي مثلت الخصب والجفاف في شخصيتين إلهيتين، هما الإله (بعل) المتحكم بأسباب الخصب والحياة، والإله (موت) المتحكم بأسباب الجفاف والموت، وهما في صراع دائم، ورغم الطابع شبه الكوني لصراعهما فإنَّ تناقض هذين القطبين لا ينطوي على دلالة أخلاقية، لأنَّ موت ليس مبدأ للشر الأخلاقي ولا حتى كائناً شريراً، والإله بعل ليس مبدأ للخير الأخلاقي، كما أنَّهُ ليس لتناقضهما وصراعهما أي تأثير على النفس الإنسانية، ولا على الأخلاق الاجتماعية، إضافة إلى أنَّهما إلهان تُقدَّم إليهما فروض الطاعة والعبادة على قدم المساواة في البانثيون الأوغاريتي.*[٤]

ويقول الباحثون أيضاً: أنَّ **الآلهة البابلية**: لا تتصف بالعدالة ولا بالخير، وكل ما تسعى إليه هو عبادة الإنسان وقرابينه التي يقدمها إليها، ومن خلال الشعائر والقرابين يستطيع استمالتها وحثَّها على اتخاذ مواقف إيجابية منه، كما ورد في

[٤]- مرقد أو مجمع للألهه.

ملحمة أتراحاسيس البابلية، وأنَّها تصنع الخير مثلما تصنع الشر، وليس بمقدور الإنسان التنبؤ بردود أفعالها لأنَّها لا تلتزم القواعد الأخلاقية ولا تجعل من سلوكها قدوة في هذا المجال لبني البشر كما في أسطورة الطوفان البابلية، أمَّا في ملحمة جلجامش التي بينت وجود مفهوم كوني للشر في الدين الرافدي يقول:" في الغابة هناك يعيش (حواوا) الرهيب، هيا أنا وأنت نقتله، هيا نمسح الشر كلّه عن وجه الأرض " ويقول موصياً أمه:" إلى اليوم الذي به أعود إلى أن أصل إلى غابة الأرز، إلى أن أقتل حواوا الرهيب فأمحو عن الأرض كل شر يكرهه الإله شمش، صلِّ من أجلي إلى شمش".

يرى بعض المفسرين في حواوا: رمزاً لمبدأ الشر المجرد، وفي الإله شمش: رمزاً لمبدأ الخير المجرد، علماً أنَّ كلمة شر باللغة الأكادية " ميما – ليمنو " تشير إلى كل ما هو مؤلمٌ ومؤذٍ وغير مواتٍ لحياة وسعادة الإنسان.

ويقولون:" إنَّ جميع الآلهة الموكلة بشؤون الشر الطبيعي وخصوصاً ما تعلق بحياة الإنسان من الآلام والأمراض والموت تنتمي إلى قوى الظلام والعالم الأسفل، كالإلهة إريشكيجال ربّة العالم الأسفل وزوجها نرجال، وإنَّ هذه الكائنات الماورائية المرعبة ليست كائنات أخلاقية انحازت إلى جانب الشر عن خيار ووعي بل هي تجسيد على المستوى المثيولوجي لوجود الشرور الطبيعانية في معزل عن الحكم القيِّمي الأخلاقي.

أمَّا الهندوسية: فهي تطور ديني لمفهوم ديانة الفيدا والبراهمانية فتحول الإله من كائن فوق الخير والشر، إلى كائن أخلاقي، ودخلت الأخلاق في صلب السلوك الديني، فإذا كان الإله أخلاقياً فإنَّه يحضُّ على مكارم الأخلاق ثم يجزي بها، على أنَّ الأخلاق الهندوسية بقيت أسيرة معتقد جبري يحرمها من جوهرها كسلوك حر ومسؤول، فلقد طورت الهندوسية الكلاسيكية اعتقاداً بجبريةٍ شمولية تطال الكائنات الحية مثلما تطال الكون بأكمله.

وعندهم إنَّ الفعل الذي يقوم به الفرد وما ينجم عنه من كارما*[٥] ليس إلاَّ جزءاً من كارما الكون بأسره، وكارما الكون هي جزء من كارما الله، فالله في حالة فعل دائم مثلما هو في حالة سكون دائم أيضاً، وكارما الله تتم في الزمن، فالزمن يتطابق مع القدر والله يتحكم بالقدر والإنسان في حالة عجزٍ تام أمام القدر، وإنَّ الإنسان ليس هو فاعل الخير والشر لأنَّهُ ليس كائناً مستقلاً، بل الله هو الذي ينجز الخير والشر على يديه، ومع ذلك فإنَّ على الإنسان أن يفعل دوماً ما هو صالح في عينيه ثم لا يلتفت إلى نتيجةٍ أو منفعة منه، وأن يمارس كل نشاط بدافع من حبه لله واستسلام كامل لما يتمه الله على يديه، وهذا عندهم مضمون الحرية الإنسانية، وما يميز كل فرق الهندوسية هو اشتراكها بعدد من

[٥] – الكارما: هو الفعل وجزاؤه، أو هي كل الأعمال والأفكار والأقوال منظوراً إليها بمعيار أخلاقي والتي ستحدد ثوابها وعقابها في التجسيد المقبل.

الأفكار والمعتقدات منها "السمسارا"*[6] وهو تناسخ الأرواح، "والكارما" هو الفعل وجزاؤه، أو هي كل الأعمال والأفكار والأقوال منظوراً إليها بمعيار أخلاقي والتي ستجد ثوابها وعقابها في التجسيد المقبل، وهذا عندهم ما يحل مسألة وجود الشر، فكل ما يصيب الفرد من نوائب وكوارث وآلام في حياته، وكل ما يلقاه من نعيم وثروات وعيش رغد هو نتيجة لكارما سابقة راكمتها روحه في تجسيداتها السابقة.

تقول أحد الأوبانيشادات " وهي الأسفار التي دونت التعاليم الدينية " إنَّ الخالد ليس لديه خوف مما ارتكبه من شر ولا أمل فيما فعله من خير، فلا الخير ولا الشر يتحكمان به، وإنَّما هو الذي يسيطر عليهما كليهما، فلا شيء مما فعله ولا شيء مما أهمل فعله يمكن أن يكون له أهمية عنده، والخالد هو صاحب العرفان الداخلي الحقيقي الذي يأمل بالانعتاق والتوحد مع براهمن الإله المطلق الذي أوجد براهما. (براهما الإله المتجسّد).

أمَّا عند المصريين:

في حوالي أواسط الألف الثالث ق. م فكانت ثنائية الإله حورس " الصقر " الذي صار مُجسِداً لكلِّ القوى الموجبة، فهو سيد السماء والشمس التي تهب الحياة والضوء، أمَّا الإله سيت فصار مُجسِداً لكلِ القوى السالبة في الكون وحياة

---

[6] – السمسارا: هو التقمص أو التناسخ في دورات متتالية بإنسان أو حيوان أو نبات.

الطبيعة، فهو العدو الأول للشمس وللضوء بجميع أشكاله، وهو سيد العماء والشواش الذي يعارض نظام الطبيعة ويعمل على نشوء الفوضى، ويتضمن معنى كلمة { سيت – الأسفل }و{ حورس – الأعلى } فلقد تأمل المصريون الكون وحياة الطبيعة من حولهم ورأوا فيها قوتين ساريتين متعارضتين ومتعاونتين في الوقت نفسه، ورأوا في جميع الظواهر نتاجاً لتداخل هاتين القوتين وفعلهما المشترك، فبينت بعض الرسوم الإلهين سيت وحورس في جسد واحد يحمل رأسين، واحد لحورس وهو الصقر، وواحد لسيت وهو الحمار، وكانا يُدعيان بالأخوين وبالتوأمين أيضاً، ومن الرموز التي تشير إلى سيت أيضاً الأفعى والخنزير البري والتمساح وبعض الحيوانات المفترسة، لاعتقاد المصريين بأنَّ قوة الإله المدمرة تحلُّ في بعض الحيوانات الشرسة، ولم تكن الأخلاق الاجتماعية في ذلك الوقت إلاَّ من تطور الفكر الديني لدى المجتمعات القديمة، فعند هذه المرحلة كان الخلود وقفاً على الفرعون الذي هو ابن الإله حورس وممثله على الأرض، كما أنَّ خلود الفرعون نفسه لم يكن رهناً بسلوكه الأخلاقي، بل بسلسلة معقدة من الطقوس والصلوات والتعاويذ السحرية، وبإعداد المقابر المكلفة للرقود الأخير، وإنَّ هذه القطبية الطبيعانية قد تحولت تدريجياً إلى نوع من الثنوية الأخلاقية، وأخذت فكرة الشيطان الكوني تتضح بدايتها مع ارتباط الأخلاق بالدين، وارتباط الأخروية بالأخلاق، وبعد أن تم ربط الأخلاق بالدين، فإذا كان الفرعون يلتحق بعالم الآلهة بعد موته بسبب نسبه الإلهي، وإذا كان بقية النبلاء

والأمراء يلتحقون به جراء شفاعته ووساطته، **فإنَّ بقية شرائح الشعب صارت تأمل الآن بالخلود عن طريق إيمانها بإله مخلّص وإتيانها لصالح الأعمال في الحياة الدنيا،** فقد كان أوزوريس إلهاً أخلاقياً يحضُّ على الفضائل ويجزي بها، ويكره الرذائل ويعاقب عليها، ومع ارتباط الأخلاق بالدين تحولت القطبية الكونية القديمة إلى ثنوية أخلاقية ممثلة بسيت وحورس.

وهذه فكرةٌ عن عبورِ الميت المفازات المرعبة، التي تفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، ومرور الميت أمام قاعة العدالة، التي يتصدرها الإله أوزوريس والإلهتان إيزيس ونفتيس، والميزان، والإله تحوث إله الحكمة، والكتابة وجانب الميزان يقف الوحش " عم ميت " آكل الموتى متحفزاً للانقضاض على الميت والتهامه إذا ثبتت إدانته، ولدى مرور الميت أمام هؤلاء يعلن براءته من إحدى الخطايا التي يكرهها الإله أوزوريس:

وهذه براءة الميت.

لم أقم بعملٍ شرير يؤذي أحد من الناس.

لم أكن سيئاً في معاملة الماشية والأنعام.

لم أقترف خطيئة في مكان الصدق (المعبد).

لم أحاول معرفة ما لا يجب على الإنسان الفاني معرفته.

لم أجدّف على أحد من الآلهة.

لم أكن قاسياً على أحد من الفقراء.

لم أقم بعمل تمقته الآلهة.

لم أشوه سمعة عبد أمام سيده.

لم أتسبب بمرض أحد.

لم أتسبب بحزن وبكاء أحد.

لم أقتل ولم أعط أمراً بالقتل.

لم أتسبب في عذاب أحد.

لم أمارس الجنس مع غلام.

لم أزد ولم أنقص في مكيال الحبوب.

لم أغش في مقياس المساحة.

لم أتلاعب بوزنات الميزان.

لم أغش في كفة الميزان.

لم أحرم الأطفال حليبهم.

لم أحرم المواشي من مراعيها.

لم أمسك الطيور في حرم الآلهة.

لم أصطد الأسماك في بحيرات حرم الآلهة.

لم أمنع الماء عن الآخرين في مواسم السقاية.

لم أضع ردماً أمام الماء الجاري في السواقي.

لم أطفئ شعلة نار لأحد.

لم أتناسى مواعيد تقديم القرابين... الخ.

أمَّا الزرادشتيين:

فيقولون عندما ولد زرادشت احتفلت كل مظاهر الطبيعة، وحدثت سلسلة من المعجزات التي رافقت ذلك الحدث المهم في تاريخ الكون وتاريخ الإنسانية، أمَّا الشيطان فقد هرب واختفى من وجه الأرض، ثم ما لبث أن أرسل زبانيته لإهلاك الرضيع، فلما اقتربوا منه تكلم في المهد ونطق صلاة للرب طردت الشياطين، وعندما شبَّ على الطوق جاء الشيطان لكي يجربه، ووضع في يده سلطان الأرض كلها مقابل تخليه عن مهمته القادمة، لكن زرادشت نهره وأبعده، "مثل هذه المواجهة بين المخلّص والشيطان نجدها في الأدبيات الدينية البوذية والمسيحية حيث اختبر الشيطان بوذا وهو في جلسة تأمل، وأيضاً تجربته ليسوع عندما أغراه بملك العالم".

وأهم مبادئ الدخول في الزرادشتية الشهادة التي تقول " أشهد أنِّي عابدٌ للإله أهورا مزدا مؤمن بزرادشت، كافرٌ بالشيطان، معتنق للعقيدة الزرادشتية، أُمجّد الإميشا سبينتا الستة، وأعزو لأهورا مزدا كل ما هو خير.

يتميز المعتقد الزرادشتي بابتكاره لمفهوم الوحدانية الثنوية، وصفة الثنوية هنا لا تلغي صفة الوحدانية، لأنَّ مفهوم الثنوية الزرادشتي يقف في تعارض مع مفهوم

التعددية، ولكنه لا يتعارض مع الوحدانية بل يتلازم معها، ذلك أنَّه يقدم أكثر التفسيرات منطقية لوجود الشر في العالم، فأهورا مزدا واحدٌ لا ثاني له في الألوهة، خالق كل ما هو طيب وحسن، ولكنه ليس مسؤولا عن وجود الشر في العالم، ولم يكن ليرتضي وجوده منذ البداية، بل لقد سعى إلى مكافحته بكل السبل والوسائل ولسوف ينتصر عليه في النهاية.

تقول قصة الخلق عندهم، في البدء لم يكن سوى الله "أهورا مزدا" وجود كامل وتام، وألوهة قائمة بذاتها مكتفية بنفسها، ولكن هذه الألوهة اختارت أن تخرج من كمونها، وتظهر ما عداها إلى الوجود، فكان أول خلقها روحان توأمان هما " سبينتا ماينو – وانجراماينو"، ولكي يكون لهذين الروحين وجود حقيقي مستقل عن خالقهما فقد منحهما الله خصيصة الحرية، التي استخدماها منذ صدورهما عنه، فاختار سبينتا ماينو الخير ودُعيَ بالروح القدس، واختار أنجراماينو الشر ودُعيَ بالروح الخبيث، ثم راح يتحضَّر للانقضاض على خلق الله القادم، ويقاوم كل عمل حسن له، هذا الخيار البدئي كان بمثابة النموذج الأسبق لكل خيار أخلاقي لاحق يقوم به الإنسان، دونما جبرية أو قدرية من أي نوع لأنَّ الإنسان سوف يُخلق حراً أيضاً، والحرية ستقوده إلى الاختيار وهو جوهر الأخلاق، وبذلك يقوم المعتقد الزرادشتي على ثلاثة عناصر رئيسية هي:

١- الحرية ٢- الاختيار ٣- المسؤولية الأخلاقية.

يقول زرادشت في أحد أناشيد الغاثا – (وهو الكتاب الذي يحفظ جوهر الدين) –: الحقُّ أقول لكم إنَّ هناك توأمين يتنافسان منذ البداية، اثنان مختلفان في الفكر وفي العمل، فروح خبيث اختار البهتان وثابر على فعل الشر، وروح طيب اختار الحق وثابر على فعل الخير ومرضاة أهورا مزدا، وعندما تجابه الاثنان لأول مرة أبدعا الحياة ونقيضها، ولكن عندما تحين النهاية، فإنَّ من اتبع البهتان سوف يُردُّ إلى أسوأ مقام، ومن اتبع الحق فسوف يُردُّ إلى أسمى مقام.

وإنَّ ما يبدو من قصور وشواش في صيرورة العالم المادي، فليس إلاّ نتيجة لامتزاجه بعناصر الشر التي جاءت من الشيطان وهي عناصر مؤقتة التأثير سوف يتخلص منها العالم إن عاجلاً أم آجلاً.

وتنعكس هذه الرؤية للعلاقة بين المادة والروح على نظرة الزرادشتية إلى الإنسان في روحه وجسده، فروح الإنسان ليست أسمى من جسده والجسد ليس منبعاً للشرور ولا رِداءً مؤقتاً نسعى إلى التخلّص منه من أجل الالتحاق بالعوالم الروحانية، بل هو الشرط الأمثل الذي يحقق للروح حياة ذات معنى، لذا فإنَّ الأرواح عندما تنفك عن أجسادها بالموت فإنَّها تبقى في حالة انتظار تحنُّ إلى الاتحادِ بأجسادها من جديد في يوم البعث الأخير، من هنا تستبعد الزرادشتية كل ممارسات الزهد والتقشف الهادفة إلى تعذيب الجسد طمعاً في تخليص الروح من آثامه، لأنَّ على الإنسان أن يُكافح الشر بروحِهِ وجسده معاً، وأن يُبقيهما في أفضل حالة تمكنهما من أداءِ هذه المهمة على أفضل وجه.

ويقولون عن مرحلة التاريخ وتطوره: لقد خلق أهورا مزدا العالم في أكمل وأطيب صورة ممكنة، واستمر على هذه الحالة ردحاً من الزمن، كان الشيطان خلالها نائماً وهذه هي المرحلة الأولى، ومرحلة الخلق الكامل.

أمَّا المرحلة الثانية يهاجم الشيطان خلق الله ويبث فيه سمومه فيختلط الخير بالشر، وهذه هي مرحلة الامتزاج.

وفي المرحلة الثالثة تبدأ عملية الفصل بين الخير والشر، والتي تنتهي بدحر الشيطان ورهطه ليعود الكون كاملاً وطيباً إلى الأبد، ولقد ابتدأت المرحلة الثالثة بميلاد زرادشت وتختم بميلاد مخلّص أو مهدي من نسله تحمله أمه بشكل إعجازي، لكنه رغم المعجزة الإلهية التي قادت إلى ولادة هذا المهدي فإنَّهُ يبقى إنسان مولود من أبوين بشريين **لأنَّ خلاص العالم في النهاية هو مسؤولية الإنسان**، والإنسان عندهم هو أنبل خلق الله، وعليه أن يستخدم ما وهبه الله من وعي وذكاء، لأجل الارتقاء بالعالم نحو المستوى الماجد والجليل الذي ينتظره في آخر الزمان، كما أنَّ الخلاص الذي يسعى إليه الإنسان ليس فقط خلاصاً فردياً من ربقة المواد إلى دار الخلود، ولا حتى خلاصاً لجمع الإنسانية، بل هو خلاص للعالم بأسره، لأنَّ الإنسانية تتخذ مكان المركز في خلق الله، وعليها وحدها تقع مسؤولية تحرير هذا الخلق بكامله من سلطة الشيطان.

إذاً من الأفكار الجديدة التي قدمتها الزرادشتية تصور وجود مبدأ كوني للشر، هو علة الفساد والنموذج البدئي لكل الشرور المتبدية في العالم، وجُسّدَ هذا المبدأ في شخصية ما ورائية كبرى" علماً أنَّ وجود الكائنات الماورائية، الشرير موجود في جميع المعتقدات الدينية عبر التاريخ " وبذلك قدمت الزرادشتية أول تفسير مقبول لوجود الشر.

أمَّا المانوية:

فتقول بوجود مبدأين كونيين متصارعين، يقود صراعهما حركة التاريخ إلى نهاية محتومة، فمنذ الأزل كان النور وكان الظلام، عالمان منفصلان ومستقلان ولكنهما متجاوران، وكان جوهر النور الحكمة، وجوهر الظلام هو الجهل، ثم إنَّ الظلام عَدى على النور فتقدم النور لصده وإرجاعه، فاختلطت عناصر النور بعناصر الظلمة وراحا يتصارعان، ولكن النور يُفلحُ في تخليص نفسه من الظلام بالقضاء عليه، وتأسيس ملكوت النور النهائي، يشارك في هذه المعركة الدائرة الجنس البشري بكل قوته، سلاحه في ذلك العرفان الذي يحرر المبدأ النوراني الحبيس في الجسد المادي المظلم، وإلى أن يحين اليوم الأخير. فإنَّ الأرواح العارفة التي اكتشفت طبيعتها كقبس من النور الأعلى سوف تنضم إلى عالمها الذي نشأت عنه، بينما تبقى الأرواح الجاهلة في إسار دورة الميلاد والموت وتتناسخ في أجساد جديدة ضمن هذا العالم المظلم.

وهكذا تستبدل المانوية المفهوم الزرادشتي عن تاريخ دينامي يشارك فيه الإنسان من خلال الإيمان والأخلاق بمفهومها عن تاريخ يشارك فيه الإنسان من خلال العرفان.

تتفق المانوية مع الغنوصية.*[٧] في نقطتين رئيسيتين: **الأولى** هي أنَّ العالم شر ومحكوم بالقوى الشريرة، **والثانية** هي أنَّ العرفان لا الإيمان هو الذي يقود إلى خلاص الروح، **فروح الإنسان هي قبس من النور الأعلى ومن جوهر الله، ولكنه قبس حبيس في سجن المادة**، ولكنها تختلف عن الزرادشتية التي تقول بالثنوية، وأنَّ النور قديم والظلام حادث.

وترى المانوية أنَّ النور والظلام أزليان ومتساويان في القدم، ولكنهما ليسا متساويين في الأبد، لأنَّ الظلام يسير نحو التلاشي والنور يحتل مواقعه.

ولد ماني في عام /٢١٦م/ وتربى على ملة أبيه، وهي طائفة غنوصية معمدانية يدعوها ابن النديم في كتابه الفهرست بالمغتسلة، وذلك نسبةً إلى طقوس التعميد بالماء التي كانت تمارسها، جاءته النبوءة وهو في سن الثانية عشر ويقول ماني:

(في هذه السنة نفسها عندما كان الملك أردشير على وشك التتويج نزل الفارقليط الحي وكلمني {والفارقليط مشتقة من الأصل اليوناني parakaleo الذي يحمل معنى التأييد والمعاضدة وفي العربية يعني المعزّي} وأباح لي معرفة

[٧] – الغنوص: العرفان – التصوف– حالة عرفانية روحانية تؤدي إلى معرفة الأسرار الإلهية.

السر المحجوب بخصوص عصور وأجيال بني البشر، السر العميق والعالي، سر النور والظلام).

كتب ماني خلال حياته عدداً من المؤلفات يربو على العشرة، أهمها الشابورقان.

يقول ابن النديم عنهم: " عندهم مبدأ العالم كونان، أحدهما نور والآخر ظلام، كل منهما منفصل عن الآخر، فالنور هو العظيم الأول، وهو الله ملك جنان النور،...وذلك الكون النيّر مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما، فلا نهاية للنور من فوقه ولا يمنته ولا يسرته، ولا نهاية للظلمة من سفلها ولا من يمنتها ولا من يسرتها، ومن الأرض المظلمة كان الشيطان الذي ليس أزلياً بعينه رغم أنَّ عناصره كانت أزلية".

ويعود ابن النديم فيقول: فلما تكوَّن هذا الشيطان من الظلمة تَسمَّى إبليس القديم، ثم راح هذا الإبليس يتحرك يمنة ويسرة وإلى الأسفل، ولما رام العلو – رأى لمحات النور فأعد نفسه وتسلح استعداداً للانقضاض على مملكة النور من أسفلها ...الخ.

ويقول فاوست تلميذ ماني في حوارٍ مع القديس أوغسطين: (إني أُبشر أنَّ هنالك عنصرين رئيسيين هما الله والمادة، فأعزو كلّ ما هو شرير إلى المادة، كما أعزو كلّ خير إلى الله).

أمَّا الشيطان في التوراة:

يعزوا الباحثون الغربيون غياب شخصية الشيطان الكوني عن المعتقد التوراتي، إلى حرص محرري التوراة على وحدانية يهوه، وتنقية مفهوم الإله الأعلى من أية ظلال قد تجنح به إلى ثنويه أو تعددية، كان الدين الشعبي اليهودي ميالاً إليها على الدوام، وأنَّ غياب الشيطان الكوني، واقتصار ممثل الشر في التوراة على دور ثانوي جداً، يرجع بالدرجة الأولى إلى قيام إشكاليتين رئيسيتين لم يتوصل الفكر التوراتي إلى حلِهما حتى نهاية فترة تدوين الأسفار القانونية، وهما إشكالية التوحيد وإشكالية الأخلاق، فمن جهة أولى لم تتوصل الإيديولوجية التوراتية إلى مفهوم صافٍ للوحدانية بخصوص الإله يهوه، كما لم تتوصل إلى ربط الأخلاق بالدين وإلى رسم صورة إله أخلاقي يجمع إليه كل الكمالات، ويؤسس لصلة بينه وبين العالم والإنسان قائمة على الأخلاق.

تتعزز إشكالية المسألة الأخلاقية في التوراة من خلال سلوك الإله التوراتي نفسه، وهو سلوك متناوس بين الخير والشر، وغالباً ما ينأى عن أبسط القواعد الأخلاقية، ونستطيع متابعة هذه الطبيعة الأخلاقية المتناقضة منذ الإصحاحات الأولى لسفر التكوين وحتى آخر أسفار الكتاب.

وهذه وصية الإله لآدم وزوجته:

" من جميع شجر الجنة تأكلان، وأمَّا من شجرةِ معرفة الخير والشر فلا تأكلا، لأنَّكما يوم تأكلان منها موتاً تموتان" وأغوتهما الحية على الأكل منها، فقالت

الحية للمرأة: لن تموتا، بل الرب عارفٌ أنْه يوم تأكلان تنفتح أعينكما وتكونان كالرب عارفين الخير والشر، فرأَتْ المرأةُ أنَّ الشجرة جيدة للأكل وأنَّها بهجة للعيون، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل"، وعندما يكتشف يهوه عصيان الإنسان ينطق بلعنته المقيمة التي تتجاوز عالم الإنسان، إلى عالم الطبيعة بأكملها

" ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً، حتى تعود إلى الأرض التي أُخذت منها، لأنَّك تراب وإلى تراب تعود".

"هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر، والآن لعله يمدُّ يده فليأخذ من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أُخذ منها".

إنَّ عدم توصل إله التوراة إلى موقف متسق عن مسألة الأخلاق، سواء فيما يتعلق بسلوكه الخاص، أم بمطلبه الأساسي من شعبه، قد جعل الشخصيات الرئيسية في الرواية التوراتية تسلك بدوافع من محاكماتها الآنية ودون الاستناد إلى أية مرجعية أخلاقية، وإذا تتبعنا سيرة حياة تلك الشخصيات من مختاري الرب، طالعتنا مواقف وتصرفات لا تليق بإنسان عادي فما بالك بأولئك المختارين الذين رسم لهم الرب أدوار مهمة في حياة الجماعة (نوح – إبراهيم – إسحاق – يعقوب – يهوذا – داود – سليمان –...الخ)

فإن أحببت أن تقرأ ما كتبوه عنهم من ارتكابهم المخازي والإثم فعليك بسفر الملوك الأول والثاني!!

وأدرك أخيراً مؤلفوا أسفار الأنبياء هذا المأزق الأخلاقي للتوراة، مثلما أدركوا المأزق التوحيدي، فحاولوا إنقاذ ما تبقى من القيم الأخلاقية التوراتية، عندما راحوا يؤكدون على السلوك الأخلاقي في مقابل الطقوس.

وجاء في سفر أشعيا: لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب، أُتخمتْ من محرقات كباش وشحم مسمنات...رؤوس شهوركم وأعيادكم بَغَضَتها نفسي، صارت عليَّ ثقلا مللت حملها، فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن أكثرتم الصّلاة لا أسمع، أيديكم ملآنة دماً اغتسلوا تنقوا اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني." اطلبوا الخير لا الشر لكي تحيوا..."

" ما لكم أنتم تضربون هذا المثل في إسرائيل قائلين:" الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست، حيٌ أنا، يقول الرب: لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل...النفس التي تخطئ هي التي تموت...الابن لا يحمل من إثم الأب"

إنَّ عدم توصل الإيديولوجيا التوراتية إلى صياغة معتقد واضح متسق حول وحدانية الإله وأخلاقيته، وتقصيرها عن بلوغ مفهوم الكمال والخير المطلق في شخصية ذلك الإله، الذي بقي يتصرف حتى النهاية كزعيم قبلي مدفوع بردود

أفعاله الآنية، قد دفع بالشيطان إلى دائرة الظل عبر أحداث الرواية التوراتية، فإله التوراة هو صانع الخير وصانع الشر في آن معاً،

وفي سفر أشعيا: " أنا الرب وليس آخر مصور النور، وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر، أنا صانع كل هذا".

ومع ذلك فإنَّ الشيطان لم يكن غائباً تماماً رغم ضآلة دوره وقلة حيلته، وهو يظهر شريكاً ليهوه أحياناً، وتابعاً له في أحيان أخرى ينفِّذ مهاماً معينة، ففي الأسفار الخمسة يدعى عزا زيل: ويبدو أشبه بالجن التي تسكن البوادي والقفار، وهو يقتسم قربان الخطيئة مع يهوه.

وفي سفر أشعيا: أسمه المهلك " للقتل والدمار " يقول: " وأنا خلقت المهلك ليخرب" ويسمى الروح الرديء الذي يرسله يهوه، جاء في صموئيل وذهب روح الرب من عند شاؤول وَبَغَتَهُ روح رديء من قبل الرب "وأحياناً شيطاناً" وهو المقاوم والمعاند" ففي /المزمور١٠٩/ يدعو كاتبه ربه لكي يقيم من عنده، شيطاناً على خصمِهِ يُفسد عليه حياتَه " فأقم عليه شريراً، وليقف الشيطان عن يمينه إذا حُوكم فليخرج مذنباً وصلاتُه فلتكن خطيئة، ليكن بنوه أيتاماً وامرأته أرملة".

جاء في سفر اللاويين: " ويأخذ هارون التيسين ويوقفهما أمام الرب لدى باب خيمة الاجتماع، ويلقي على التيسين قرعتين قرعة للرب، وقرعة لعزا زيل،

ويقرّب هارون التيس الذي خرجت عليه القرعة للرب ويعمله ذبيحة خطيئة، وأمَّا التيس الذي خرجت عليه القرعة لعزا زيل فيوقف حياً أمام الرب ليكفّر عنه ليرسله إلى عزا زيل في البرية"

وفي سفر القضاة: يدعى " بلعيال " وهو الشرير عديم الفائدة، وعن سبط بنيامين الذي كان رجاله لوطيين يصطادون الغرباء، ويعتدون عليهم " وفيما هم يطيبون قلوبهم إذا برجال المدينة رجال بلعيال أحاطوا بالبيت قارعين الباب، وكلموا الرجل صاحب البيت الشيخ قائلين: أَخرج الرجل الذي دخل بيتك فنعرفه " وهو الفعل المنافي للحشمة" فخرج إليهم الرجل صاحب البيت وقال لهم: يا أخوتي لا تفعلوا شراً، بعدما دخل هذا الرجل بيتي، لا تفعلوا هذه القباحة.

وفي سفر زكريا: ينتهر الرب الشيطان لأنَّه وقف عن يمين الكاهن يهوشع ليقاومه" وأراني الملاك، الكاهن العظيم يهوشع قائماً قدام الرب، والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه، فقال الرب للشيطان: لينتهرك الرب يا شيطان، لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم".

وفي سفر أيوب: كأنَّ الرب يهوه والشيطان متفقان على النيل من العبد لصالح أيوب، جاء فيه " وكان ذات يوم أنَّه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء

الشيطان أيضاً في وسطهم، فقال الرب للشيطان: من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال: مِنَ الجَوَلان في الأرض والتمشي فيها".

وأيضاً في سفر أيوب: فقال الرب للشيطان :" هل جعلت قلبك على عبدي أيوب لأنَّه ليس منه في الأرض رجل صالح كامل ومستقيم يتقي الله ويحيد عن الشر"، يبدأ الشيطان مكيدته لأيوب، ويهوه يطلق يده في ذلك إلى أن يهدأ غضب يهوه عليه ويرأف به.

والملائكة في التوراة تختلف عن مثيلتها من الفارسية وغيرها، لأنَّها ليست نورانية خيّره تقف في وجهِ الشيطان وتكافح الشر في العالم، بل هي البطانة الخاصة التي تُحيط بيهوه الملك، وتحمل عرشه كلما زار الأرض، وتُنفّذ كل ما يوكل إليها من المهام " فمنها للمهام الخيّرة، ومنها للمهام الشريرة وتدعى كروبيم، ومفردها كروب وهي من أصل بابلي تدل على كائنات مجنحة ذات رأس إنساني وجسم حيواني".

ونظراً لغياب الشياطين كمخلوقات ما ورائية شريرة، فإنَّ الملائكة تنقسم إلى فريقين، واحدٌ شرير والآخر طيب، والشريرون منهم هم أداة غضب يهوه " أرسل عليهم حمو غضبه سخطاً ورجزاً وضيقاً، جيش ملائكة أشرار، مهَّد الطريق لغضبه وأمَّا الطيبون منهم فيحفظون أتقياء يهوه " لأنَّك قُلت أنت يا رب ملجئي، لا يلاقيك شر، لأنَّه يوصي بك ملائكته لكي يحفظوك في كل طرقك" "المزمور٩".

يقول الباحثون:

إنَّ الإيديولوجيا التوراتية تفتقر إلى أهم العناصر التي يقوم عليها مفهوم التاريخ الدينامي وهي وحدة الإله وأخلاقيته، والشيطان الكوني وصراع الخير والشر الذي يقود التاريخ والزمن معاً إلى نهاية يعقبها خروج من الزمن إلى الأبدية.

أمَّا ما ورد في الأسفار غير القانونية، وفي نصوص قمران التي ترجع كما يقول الباحثون إلى أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، ومنها سفر أخنوخ التي تبنته الكنيسة الإثيوبية كجزء من العهد القديم.

يقول في أحدِ مقاطع **سفر أخنوخ** " إدريس بن يازد"

"كنت ساجداً طيلة الوقت أرتعد ثم كلمني الرب بصوته قائلاً:" تقدم يا أخنوخ واسمع كلامي، فجاء أحد الملائكة المقدسين فرفعني وسار بي حتى دنوت من البوابة، وأنا مُطرق الرأس هناك كلمني ثانية وقال: لا تخف يا أخنوخ أيُّها الرجل الطيب يا كاتب الصدق، تقدم إليَّ واسمع صوتي، اذهب إلى ساهري السماء (الملائكة حراس الأرض) الذين أرسلوك لتسترحم من أجلهم، وقل لهم قد كان أحرى بكم أنّ تسترحموا من أجل الإنسان لا أن يسترحم الإنسان من أجلكم، وقل لهم لماذا توليتم عن السماء العليا المقدسة، لتناموا مع النساء وتتدنسوا ببنات الناس وتأخذوهن لكم زوجات مثل بني البشر وتنجبوا منهن أولاد عمالقة، كنتم قديسين وروحانيين وخالدين ولكنكم تدنستم بدم النساء، وأنجبتم أولاداً من لحم ودم، ومثل الذين يموتون ويفنون صار لكم توق لجسدِ اللحمِ

والدم، لقد أعطيت أولئك نساء يخصوهنّ وينجبوا منهنّ أولاداً لكي لا يفنى جنسهم على الأرض، أمَّا أنتم فكنتم روحانيين وخالدين على مرِّ أجيال الأرض، فلم أعطكم زوجات لأنَّ السماء مسكنكم، والآن فإنَّ العمالقة أولادكم نسل الروح والجسد سيُدعون أرواحاً شريرة، لأنَّ أرواحاً خبيثة سوف تصدر عن أجسادهم المذبوحة ويكون في الأرض مسكنها، لأنَّهم ولدوا من نساء الأرض ومن الساهرين.*[٨] المقدسين، لن يأكلوا ولن يشربوا رغم أنهم، يعطشون، سوف يسببون الأذى والعنف والدمار على الأرض ويدفعون الناس إلى الخطيئة وإلى المعصية، ويقومون ضد أبناء الناس وضد النساء لأنَّهم منهن قد أتوا، عندما يهلك العمالقة سوف تعيث الأرواح الخارجة منهم فساداً، وترتع بلا رادع إلى يوم الحساب الأخير، يوم يهلك الساهرون الساقطون، فقل يا أخنوخ للساهرين الذين تسترحم من أجلهم لقد كنتم من سكان السماء، وقد كشفت لكم بعض أسرارها ولكنكم بقساوة قلوبكم نقلتم الأسرار إلى النساء وبفضلها صنع النساء والرجال مزيداً من الشرور، وقل لهم لن يكون سلامٌ أبداً".

اختلفت الأسفار في مصدر الشر، فالشر في **سفر عزرا**: ينبع من الإنسان لا من قوة خارجية عنه.

أمَّا في اليوبيليات: فإنَّ الشرَّ يأتي من قوة ما ورائية طاغية، وما الإنسان إلاَّ ضحية لهذه القوة بسبب ضعفه في مواجهتها.

[٨] – ملائكة السماء، حراس الأرض.

ونقرأ في الفصل العاشر من **اليوبيليات** أو بما يُسمّى بالأسفار المنحولة في الأسبوع الثالث من تلك الخمسينية: أخذَ الشياطين المتمردين بتضليل نسل نوح ودفعهم للرذالات وإهلاكهم، فجاء أولاد نوح إلى أبيهم وحدثوه بأمر الشياطين التي تُعمي وتضل، وتهلك أحفاده فصلى نوح إلى الرب إلهه، وقال: " يا إله الأرواح التي تقيم في كل جسد أنت الذي رحمني وأنقذني مع أولادي من مياه الطوفان فلِمَ أَهْلَكُ مع أبناء اللعنة، لأنَّ نعمتك عليَّ كانت عظيمة، ورحمتك واسعة على روحي، أسبغ نعمتك على أولادي، ولا تدع للأرواح الشريرة عليهم سلطاناً فيبيدونهم عن وجه الأرض، باركني وبارك أولادي، لنكثر ونتزايد ونملأ الأرض، أنت تعلم ما فعله ملائكتك الساهرون آباء هذه الأرواح في أيامي قبل الطوفان، وما فعله من بقي من هذه الأرواح بعد حملتك عليهم، فلتوقع بهم وتقودهم إلى مكان الحساب، ولا تتركهم يعيثون فساداً بين أبناء خادمك، لأنَّهم يا إلهي قُساة وقد خُلقوا لكي يدمروا، ولا تدع لهم سلطاناً على نفوس الأحياء".

يقول الملاك: فأمرنا الرب إلهنا أن نوثقهم جميعاً، ولكن مستيما رئيس الأرواح مثَل أمام الرب وقال: أيَّها الإله الخالق اترك بعضاً منهم معي ليستمعوا إليَّ ويفعلون ما آمرهم به، لأنَّه إذا لم يبق لي منهم أحد لا أستطيع بسط سلطاني على أبناء البشر، لأنَّ شر البشر عظيم وبنو الإنسان منذرون للضلالة قبل أن يصدر حكمك بشأني.

أمَّا في وصايا الأسباط الاثني عشر:

استمعوا يا أبنائي أشير إلى أبيكم، فأريكم كل ما هو حسن في عين الرب، لقد أعطى الرب لبني الإنسان دربين وسلوكين ونموذجين ونهايتين، وهذان الدربان هما درب الخير ودرب الشر، وفي مقابل هذين الدربين هنالك في صدورنا مَيلان اثنان يختاران بين الدربين، فإذا مالت النفس إلى درب الخير، فإنَّ كل أعمالها تسير في الخير، وتجنح للاستغفار والتوبة عن كل خطيئة، وهي أن تضع نصب عينيها العمل الصالح وتدير ظهرها للعمل الطالح، فإنَّها تقتلع الخطيئة من جذورها وتقهر الشر، أمَّا إذا مالت النفس نحو الشر فإنَّ كل أعمالها تكون خبيثة تهجر الخير وتفتح الصدر للشر فتُستعبد لبلعار، عند ذلك يتحول حتى فعل الخير إذا أرادته إلى شر، لأنَّ مخازن الشيطان مترعة بسمومِ الأرواح الشريرة، وأنتم يا أبنائي لا تكونوا مزدوجي الوجوه، وجه للخير ووجه للشر، وإنَّما التزموا الطيبة، لأنَّ الرب الإله يرتاح إليها والناس تتطلع إليها، أديروا ظهوركم للنوازع الشريرة واستعينوا على الشيطان بعملكم الطيب، لأنَّ مزدوجي الوجوه ليسوا من الله، بل عبيد لرغباتهم الآثمة، وهم يرضون بلعار والذين على شاكلتهم.

وفي وصية دان:

الغضب سيءٌ يا أولادي، يعكرُ الروح ويتملك جسد الغضوب، فينقل إليه قوته الخاصة ليجعله يرتكب كل أنواع الظلم...

إنَّ روح الغضب تمشي دائماً مع روح الكذب إلى يمين الشيطان، لكي يُتم أعماله بالوحشية والخداع، فاحفظوا وصايا الرب يا أبنائي، تفادوا الغضب، واكرهوا الكذب ليسكن الرب بينكم، وليهرب بلعار بعيداً عنكم.

وفي وصية نفتالي:

" لا تُعجّلوا بإفساد أعمالكم بالجشع، ولا تضللوا نفوسكم بالكلام الباطل، لأنَّ من يلتزم الصمت في نقاوة الفؤاد يحفظ مشيئة الله وينبذ مشيئة بلعار"

" فإذا سعيتم في الخير يا أولادي يبارككم الناس والملائكة، ويهرب الشيطان عنكم ومن يسعَّ في الشر يلعنه الناس والملائكة ويتملكه الشيطان فيجعله أداةً له".

ويقدم يساكر في وصيته بعض الوصفات الأخلاقية:

" لقد بلغت من العمر مئة وأثنين وعشرين سنة ولم أقترف خطيئة.

لم أعرف امرأة غير زوجتي.

لم أفسق بنظرة شبقة.

لم أشرب الخمر حتى الثمالة.

لم أطمع بممتلكات جاري.

لم يكن ثمة غشٌ في قلبي.

لم يجرِّ الكذب على لساني.

بكيت وتألمت مع كل إنسان مقهور.

شاركتُ الفقراء خبزي، ولم آكل وحدي.

كنت ورعاً ومستقيماً كل أيام حياتي.

أحببتُ الرب بكل قوتي، وأحببتُ كل إنسان كحبّي لأولادي.

فافعلوا هذا يا أولادي وسيهرب كل روح لبلعار بعيداً عنكم، ولن يكون لشر مخلوق سلطان عليكم".

وهذه وصية شمعون عن يوم الدينونة:

" عندها ستهدأ الأرض كلها من اضطرابها، ويرتاح كل من تحت السماء من الحروب، عندها سيُمجّد سام **لأنَّ الرب الإله، عظيم إسرائيل سيظهر على الأرض في شكل إنسان وينقذ بنفسه آدم**، عندها سيتم تسليم أرواح الضلال جميعها لكي تداس بالأقدام، ويسود البشر على الأرواح الشريرة، عندها سأبعث في سعادة وأبارك العلي لأجل عجائبه، لأنَّ الرب اكتسى جسداً وتناول طعاماً مع الناس وخلَّص البشر"

وفي وصية يهوذا:

" فافهموا يا أبنائي أن هنالك روحين مسخرين للبشر، روح الحق وروح الضلال، وبينهما الوعي الصاحي الذي يميل وفق إرادته إلى هذا أو إلى ذاك، إنَّ أعمال الحق وأعمال الضلال مسجلة في ضمير الإنسان والرب يعلم بها، ما من لحظة

تخفى فيها أعمال الإنسان لأنَّها مكتوبة على القلب، ومكشوفة أمام الرب، كما أنَّ روح الحق يشهد على كل شيء، ويوجه الاتهامات بحق المخطئ الذي ينهشه ضميره فلا يجرؤ على رفع بصره إلى قاضيه.

وفي وصية زبولون:

" بعد ذلك سوف يتجلّى لكم الرب نفسه نور العدل وفي جناحيه الشفاء والرحمة، فيحرر من بلعار أبناء البشر الأسرى ويطأ كل أرواح الضلال، ويهدي كل الأمم فَتُخلص له، **سترون الرب في هيئة إنسان يختاره الرب ويظهر اسمه في أورشليم،**

وفي نصوص قمران في مخطوط نظام الجماعة.

" وأعدَّ للإنسان روحين ليمشي فيهما إلى يوم الافتقاد هما روح الحق وروح الضلال، وفي ينبوع النور أهل الحق، وفي ينبوع الظلمة أهل الضلال، في يد أمير الأنوار سيادة على جميع أبناء البِر، فهم في طريق النور يسيرون، وفي يد ملاك الظلمة سيادة على جميع أبناء الضلال، فهم في طريق الظلمة يسيرون، ولكن بسبب ملاك الظلمة يضل أبناء البِر أيضاً، فكل آثامهم وخطاياهم ومعاصيهم هي نتيجة سيادته حسب أسرار الرب حتى الزمن المحدد، وكل الضربات التي تصيبهم وكل أوقات ضيقهم هي نتيجة سيادة بغضه، كما أنَّ كل الأرواح التي

هي من نصيبه " الشياطين " تجعل أبناء النور يعثرون، لكن إله إسرائيل وملاك حقه يعينون جميع أبناء النور".

" أجل، هو الذي خلق الروحين، روح النور وروح الظلمة، وعلى هذين الروحين أسس كل عمله، وعلى مشورتيهما كل خدمة، وعلى طريقيهما كل افتقاد، واحد منهما يحبه الرب مدى الأجيال ويرتضي بعمله إلى الأبد والآخر يمقت مشورته وإلى الأبد يبغض جميع طرقه، وها كم طرق هذين الروحين في العالم، روح الحق هو الذي يُنير قلب الإنسان، ويمهّد أمامه كل طرق البر الحقيقي، ويجعل في قلبه مخافة أحكام الرب...أمَّا روح الضلال ففيه الطمع والتهرب من البِر، وفيه الكذب والكبرياء..."

" **حتى الزمن الحاضر يتحارب روحا الحق والضلال في قلب كل إنسان، والناس يسيرون في الحكمة والجهالة،** كل منهم يبغض الضلال بقدر قسمته في الحق والبر، أو يمقت الحق بقدر ميراثه في حصةِ الضلال، فالرب قد رتَّب هذين الروحين في قسمين متساويين حتى الحد الحاسم حد (أو ميعاد) التجدد، وهو يعرف جزاء أعمال هذين الروحين على مدى الأزمنة، وقد وزعهما بين أبناء البشر لكي يعرفوا الخير ويعرفوا الشر، وهكذا تعطى قسمة كل حي بحسب روحه حتى يوم الدينونة والافتقاد".

وفي سفر أسرار أخنوخ يقول:

" في السماء الخامسة يرى أخنوخ الملائكة الساقطين المدعوين بالعمالقة، وهم أول زمرة من الملائكة تمردت على الرب، وتبعت رئيسها المدعو " ساتانا إيل" فأدارت وجهها عن نور الرب، ثم أغوت بقية الملائكة الساقطين الذين رآهم في السماء الثانية، وكانوا في كربٍ عظيم وحزنٍ عميق صامتين إلى نهاية الأزمنة عندما يحين يوم عقاب الرب.

أمَّا ما أوردته بعض تلك الأسفار من قصة آدم وحواء:

وخداع إبليس لهما، فهذا مقطع من حواره مع آدم بعد الهبوط إلى الأرض، وبعد إيقاعه بحواء مرة أخرى، وتعنيف آدم لها وللشيطان. " فلما رآهما قادمين صرخ وانتحب وناداها قائلاً: أين ذهب ندمكِ واستغفاركِ ؟ وكيف وقعتِ ثانية تحت غواية عدونا الذي حرمنا مسكننا الفردوسي ومتعنا الروحانية ؟ ولسماعها نداء آدم انتبهت حواء إلى خديعة الشيطان، فسقطت على وجهها في التراب، وتضاعف عويلها ونواحها، وصرخت في وجهِ مرافقها: الويل لك أيها الشيطان، لماذا تهاجمنا دون سبب ؟ ما الذي فعلناه حتى تلاحقنا دوماً بالمكر والخديعة".

" فتنهّد الشيطان وقال: إنَّ كلّ عدائي وحسدي بسببك أنت يا آدم، بسببك أنتَ طُردتُ وحُرمتُ من مجدي في السماء بين الملائكة، بسببكَ رُميت من الأعالي إلى الأسافل...؟

جاء في قصص التوراة: " الهاجاده "

بعد أن خلق الله آدم وأسكنه الجنة وعلَّمه الأسماء، أَمَرَ الرب الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا، وعلى رأسهم ميخائيل، الذي كان أول الساجدين لكي يضرب مثلاً للآخرين في الطاعة والخضوع للأمر الإلهي، ولكن الملاك الرئيس (ساتان) الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم، ورفضٍ السجود قائلاً: لقد خلقتنا من أَلَقِكَ وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض ؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإنَّ تراب الأرض هذا يفوقك حكمة وفهماً، وهنا تدخل ميخائيل وحثَّ ساتان على الانصياع قائلاً: إذا لم تبجل آدم وتخضع له، عليك أن تتحمل عواقب غضب الرب، فأجابه ساتان: إذا صبَّ غضبه عليَّ سأرفع عرشي فوق نجوم السماء وأغدو نِداً للعلي، فلما سمع الرب ذلك منه أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى باتجاه الأرض، وتبعه حشد كبير من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسدٍ لآدم، ورفضٍ لسموِّه عليهم، ومنذ تلك اللحظة صارت عداوة بين الشيطان والإنسان.

يصورُ الفكرُ الجديد أنَّ الشرَّ هو نتاج الحرية التي زرعها الله في خلقه من الملائكة والناس، فلقد قادت الحرية إلى عصيان إبليس عن سابق قصد وتصميم ومعرفة لعواقب العصيان، كما قادت الإنسان الأول إلى الخطأ عن غفلة منه وسذاجة، فإبليس يتابع عصيانه المتعمد إلى آخر الأزمان، ويُمْتَحَنُ الإنسانُ في عالمٍ تتداوله قوة الشيطان المدمرة ويد الرحمن الممدودة دوماً للرحمة والخلاص،

هذا الصراع على كل المستويات، سوف يقود الزمن إلى نهايته التي ستشهد اندحار الشيطان، بعد أن تطغى عناصر الخير على عناصر الشر عبر الفترة الوسط من التاريخ، ويعود الوجود المادي والإنسان إلى حالة الكمال الأولى.

أمَّا الغنوصية اليهودية:

التي تقود إلى معرفة الأسرار الإلهية، من خلال التجربة الباطنة إلى الكشف والاستنارة، فهي التي تحرر الروح الحبيسة في الجسد المادي لتعود إلى عالمها الأسمى الذي صدرت عنه، فالله الحي الذي يبحث عنه الغنوصي في داخلهِ، ليس الإله يهوه صانع هذا العالم المادي، بل الله العلي الذي يتجاوز ثنائيات الخلق ويسمو فوقها، فهم يعتقدون أنَّ هذا العالم الناقص، والمليء بالشرور ليس من صنع الله، بل من صنع إله أدنى هو إله التوراة، الذي يطابقون بينه وبين " أنجرامانيو شيطان الزرادشتية "، ويدعونه بأمير الظلام وحاكم العالم المادي، فلقد حلت الغنوصية معضلة وجود الشر في العالم بطريقة مبدعة وجديدة على الفكر الديني، وذلك بابتكارها لفكرة الأب الأعلى، مصدر العالم الروحاني عالم النور، والإله الأدنى خالق العالم المادي، عالم الجهل والظلمة، فالكون المادي، لم يُخلق كاملاً من قبل الله ثم داخله الشر من خارجه، كما هو الحال في المعتقد الزرادشتي، بل إنَّ المادة هي الشرّ بعينه، ومصدر هذا الشر هو إله التوراة، الذي ولد صدفة من الأم صوفيا " الرحم الأعلى " ثم راح يخلق المادة ليقتنص فيها نور الأعالي ويحبس فيها أرواح الناس، ولكن هذا الإله وعالمه سيؤولان إلى الدمار،

عندما يتعرف الإنسان على النور الأسمى في داخله، وهي المعرفة التي تعتقه من دورة الميلاد والموت والتناسخ في الأجساد، فالإنسان ليس خاطئاً منذ البداية، ولكنه مأسور في حجاب الجهل، ولا فكاك له إلاَّ بالعرفان وهو النشاط الأسمى للنفس الإنسانية الراغبة في الانعتاق، إنَّ العرفان الداخلي يُنيرُ جنبات النفس، وهو الذي يجعل من صاحبه إنساناً طيباً وأخلاقياً، ودونما حاجة إلى لوائح أخلاقية مفروضة من الخارج، لأنَّ الشر هو الجهل والمعرفة هي الخير.

أمَّا الغنوصية المسيحية:

في القرون الوسطى فقد نشأ عنها عدة مذاهب، منها ما عُرِفَ بمذهب (البوجوميل)، يقول بثنوية معتدلة لا تجعل من الشيطان إلهاً مستقلاً، بل تجعله ابناً لله خرج على طاعته وعصاه، فهم يؤمنون بإلهٍ واحد أعلى وهو الإله المسيحي الطيب صانع كل ما هو خيرٌ وحسن، ويعتقدون بأنَّ هذا الإله الطيب قد أنجب ابنه البكر "لوسيفر" الذي يعني اسمه "حامل الضياء" نظراً لشدة بريقه ولمعانه، إلاَّ أنَّ لوسيفر هذا عصى أباه وسقط من المستوى الروحاني الأعلى بمحضِ إرادته الحرة التي وهبه إياها أبوه وصار اسمه " ساتانا إيل " أي الشيطان.

وأيضاً من الفرق الغنوصية المسيحية / الكاثارية/:

وهي الأكثر انتشاراً في القرون الوسطى وأشدها خطورة على الكنيسة الرسمية وتعني الكاثاريه: " النقاء والطهارة " رفضوا المؤسسة الدينية كوسيط بين الله

والناس وكمفسر لوحي الكتاب، كما رفضوا مفهوم الإيمان واستبدلوه بمفهوم العرفان الداخلي، الذي يؤدي إلى الانعتاق من دورة التناسخ، كما رفضوا فكرة المسيح المخلّص المتجسد، ورفضوا المضمون الخلاصي لواقعة الصلب والصليب كرمز لخلاص الإنسانية، ورأوا في الصليب رمزاً لأمير الظلام حاكم العالم المادي، والعدو الأول لمبدأ الخلاص، واعتقدوا بمسيح سماوي لم يتجسد في إنسان، لأنَّ الجسد الإنساني ينتمي إلى عالم المادة المظلمة صنيعة الشيطان، ومن غير الممكن للمسيح أن يلبس جسداً ويبقى مع ذلك ابناً لله.

ويقولون: أنَّ الإنسان قادر على إزالة الخطيئة الأصلية من خلال التعرف على أصله النوراني، ومقاومة كل تأثير للعالم المادي عليه، وهو في سعيه لتحرير روحه إنَّما يشارك في الوقت نفسه بالجهد الخلاصي للكون، الذي يهدف إلى القضاء على مملكة الشيطان، غيرَ أنَّ سعي الإنسان هذا يبقى قاصراً دون مدد من الأب النوراني الأعلى، الذي شعرَ بالعطفِ نحو ملائكتِهِ الساقطة المحبوسة في أجساد بشرية مادية، وغفرَ للإنسان خطيئته الأصلية التي ارتكبها جهلاً لا اختيار. وعلى الرغم من اختلاف هذه الطوائف في تفاصيل المعتقد والممارسة إلاَّ أنَّها تتفق جميعاً حول عدد من مبادئ العقيدة، وعلى رأسها العرفان، وتناسخ الأرواح، والثنائية الكونية، وتعتبر الكنيسة الرسمية أنَّ هذه الهرطقات قد شكلت خطراً عليها فتداعت لمحاربتها وإنهائها.

أمَّا الشيطان في اللاهوت المسيحي:

لما كانت أهم صفات الله في علاقته بالعالم هي الحق والخير والعدل، وجميعها تنفي مسؤولية الأب السماوي عن وجود الشر في العالم، فقد لجأ المعتقد المسيحي إلى حلٍّ هذه المعضلة عن طريق تبنّيه لجواب قديم في صيغة جديدة، وذلك بابتكاره لأولِ مرة مفهوم الثنويه الأخلاقية التي تجعل للشيطان سلطاناً على الحياة النفسية والمجتمعية للإنسان من دون بقية مظاهر الكون.

- لا تُقدم أسفار العهد الجديد رواية منسقة عن منشأ الشيطان، لأنَّها اعتمدت على لاهوت للشيطان نسجه الفكر اليهودي المتحول ببطء، فالشيطان ليس كائناً شريراً فحسب، وإنَّما هو صاحب مملكة للشر تسود في هذا العالم، وقد قارن إنجيل متى بين مملكة الشيطان هذهِ، ومملكة الله التي ستُبنى على أنقاضها بظهور يسوع المخلّص.

" فعندما رأى الفريسون أنَّ يسوع يُخرج الشياطين من أجسام المجانين قالوا: هذا لا يُخرج الشياطين إلاَّ " ببعل زبوب " رئيس الشياطين، فَعَلِمَ يسوع أفكارهم وقال لهم: كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب، فإن كان الشيطان يُخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته، فكيف تثبت مملكته، ولكن إن كنتُ أنا بروحِ الله أُخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله".

وهنا يجرب الشيطان يسوع ليوقع به:

" ثم أصعده إبليس إلى جبلٍ عالٍ وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان، وقال له إبليس: لك أُعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنَّه إليَّ قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد، فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع، فأجابه يسوع وقال: اذهب يا شيطان إنَّه مكتوب للرب تسجد وإياه وحده تعبد " لوقا ٤ "

وجاء في إنجيل متى:

" ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذٍ يجلس على كرسي مجده،...ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم،...

ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار المعدة لإبليس وملائكته.

وجاء في رسالة بولس لأهل أفسوس:

" البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس، فإنَّ مُصَارعتنا ليست مع دمٍ ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين مع ولاةِ العالم على ظلمةِ هذا الدهر مع أجنادِ الشر الروحية في السماويات".

من وصايا السيد المسيح الاجتماعية والأخلاقية:

طوبى للمساكين بالروح لأنَّ لهم ملكوت السماوات.

طوبى للحزانى لأنَّهم يتعزون.

طوبى للودعاء لأنّهم يرثون الأرض.

طوبى للرحماء لأنَّهم يرحمون.

طوبى لأنقياء القلب لأنَّهم يعاينون الله.

جاء في رسالة يوحنا الأولى:

أيُّها الأحباء إن كان الله قد أحبنا، هكذا ينبغي لنا أيضاً أن نحبّ بعضنا بعضاً ...الله محبة، ومن يثبت في المحبة يثبت في الله، والله فيه...إن قال أحدكم إني أحب الله وأبغَضَ أخاه فهو كاذب، لأنَّ من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره"

وجاء في إنجيل مرقس:

ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجّسه، لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس الإنسان لأنَّه من الداخل، من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة"

وجاء عن السيد المسيح: (عليه السلام):

كل شقاء يحلُّ بالإنسان إنَّما يحلُّ به من الله لخلاصِهِ، لكن الخطيئة من الشيطان.

وقد لخَّص الباحثون قصة إبليس وآدم والمخلّص بقليل من العبارات:

لقد عَرِفَ الله الذي يعلم البدايات والنهايات، أنَّ الحرية التي أعطاها للوسيفر ولآدم سوف يُساء استخدامها، وأنَّ العالم سيقع فريسةً للموتِ والفسادِ نتيجة عصيان الكائنات العاقلة، ولكنَّه كان يضمر خطة لتخليص الإنسان في الوقت المناسب، دون الإخلال بمبدأ الحرية الذي ارتضاه للوعي المستقل عنه، سوف يهبط الأقنوم الثاني في الثالوث ليغدو إنساناً لأمدٍ معلوم، فيدخل في زمنِ الناس وفي دورة الحياة والموت، ليُخلّص خلقه من اللعنة القديمة وهكذا كان.

ففي اللحظة صفر من تاريخ الكون ولد الكلمة من رحم العذراء وتجلَّى في هيئةِ يسوع الناصري فعاش على الأرضِ، وشارك الناس الألم والمعاناة، ثم مات على الصليب من أجل خلاصهم، وبذلك افتدت الذبيحة الإلهية، وهي القربان الكامل الإنسان، فخلصته من الموت الذي جلبته خطيئة آدم، وفتحت أمامه أبواب الأبدية، فالمسيح هو معنى التاريخ وليس نتاجاً له، ولهذا السبب فقد جاء تجسّده في منتصف الزمن، لا في بدايتِهِ ولا في نهايتِهِ، ليكون بمثابة محور التاريخ الذي يضفي على البداية والنهاية معناها.

أمَّا عبدة الشيطان:

فهم جماعة نشأة في أواخر القرن الثاني الهجري في شمال العراق، ويبررون عبادتهم للشيطان، أنَّهم بعبادتهم له يتجنبون أذيته وأنَّ الله رحيم يرحمهم في الآخرة ويغفر لهم.

أمَّا عبدة الشيطان في الغرب:

فهم من أصحابِ الفكر المنحرف، وإنكار الذات الإلهية، وتقديس الشيطان، وإباحةِ المحرمات، ويخالفون الوصايا العشر بنقيضها، ويستعملون الموسيقى والرقص الخلاعي والتعرّي في سهراتهم ومن صفاتهم (الثياب السوداء، والشعر الطويل، ويرسمون وشم الصليب المعقوف على أذرعهم أو صدورهم أو نجمة داؤود) وتعاون قسم منهم مع الماسونية وكتابهم " الشيطان " لليهودي الأمريكي (ليفي) وهناك العشرات من أغاني البوب الشيطانية، وغيرها من وسائلهم الموجَّه بُغية الوصول إلى عقولِ وقلوبِ العالم لإفسادها والسيطرة عليها.

****

(الجزء الثاني)

بعد أن استعرضنا في الجزء الأول {الشيطان كذكر ومفهوم} في الديانات الوثنية والتوحيدية ما قبل الإسلام، نتابع الآن مفهوم الشيطان في الدين الإسلامي، وعبر امتداد جسرِ المعارف والأدبيات والأفكار التي تمَّ تطويرها نحو أخلاقيات عُليا تتطابق بعض الأحيان مع الأفكار السابقة المؤدية إلى خلود الروح وخلاصها من الشيطان، وتقفز حيناً آخر نحو إعطاء تفسيرات أُخرى للشيطان، وتمييزه بين العقلي الخالص والمادي الخالص أو الممتزج بينهما، والتي خلصت أيضاً إلى تطابق الأخلاق مع الدين عبر مئات الوصايا الإلهية وغيرها.

الشيطان في الدين الإسلامي

إنَّ الإسلام يقوم على الإيمان بالله، إلهاً واحداً خالقاً رَازقاً عالماً قادراً حيَّاً قيوماً، ليس له ضدٌ ولا ندٌ ولا شريك، وعلى الإيمان بالملائكة، والكتب السماوية التي أنزلها، وبالنبيين والرسل، والإيمان باليوم الآخر، مع اقتران ذلك الإيمان بالعمل الصالح الممثل بأخلاق الإسلام، لأنَّ الإسلام عماده بعد العلاقة مع الله، العلاقة مع الإنسان، هذا الإنسان كما قلنا كرمَّهُ الله وخلقه في أحسن تقويم، وعلَّمه كل ما يلزمه – لكي يرفعه إلى السماء– مَن العلاقةِ بكل ما يحيط بهِ في هذا الكون، علاقته بالإنسان بالحيوان بالأرض بالنبات بالملائكة وغيرها، والكتاب الكريم مليءٌ بالتعاليم الأخلاقية الراقية، ولذلك قال نبي الرحمة سيدنا

محمد (ﷺوآلهِ): إنَّما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق.*[٩] ومدحه الله حين قال في حقّه: (**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٤)**)(القلم).

وقال تعالى: (**وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (٢٨٥)**)(البقرة).

وقال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾**)(النساء).

وقال تعالى: (**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٢٥)**)(البقرة).

وقال تعالى: (**وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى(٨٨)**)(الكهف).

وقال تعالى: (**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ (١١)**)(الطلاق).

بعد هذه الآيات نرى أنَّهُ لا يُشكِّل الشيطان عنصراً جذرياً من عناصر الإيمان في المعتقد الإسلامي، لكنَّ الله سبحانه حذَّر منه ومن عداوته في العشرات من الآيات كما أسلفنا، منها

- قوله تعالى: (**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨)**)(البقرة).

[٩] - مسند الإمام الرضا. وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال.

– وقوله تعالى: (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ(٢٤)**)(النمل).

– وقوله تعالى: (**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ (٢٦٨)**)(البقرة).

فلنبدأ بقصة آدم والملائكة وإبليس وامتناع إبليس عن السجود لآدم والتي ذُكرت في العديد من السور في كتاب الله.

– فقد جاء في سورة البقرة: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)**)(البقرة).

– وقال تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا(٦٥)**)(الإسراء).

– وقال تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(٥٠)**)(الكهف).

– وقال تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى**

﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى(١٢٠))(طه).

- وقال تعالى: (**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ**

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ(٢٥))(الأعراف).

– وقال تعالى: (**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠**))(الحجر).

– وقال تعالى: (**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾**)(ص).

إبليس لغةً

فمن هو إبليس:؟؟؟؟؟؟؟؟؟

- جاء في لسان العرب: إبليس: أبلس الرجل: قُطع به، وأبلس: سكت، وأبلس من رحمة الله: أي يئس وندم ومنه سمي إبليس وكان اسمه عزازيل، وفي التنزيل العزيز: يومئذ يبلس المجرمون، وإبليس لعنه الله مشتق منه لأنَّه أبلس من رحمة الله: أي أُويس وقال أبو إسحاق: لم يُصرف لأنَّه أعجمي.

- وعند المسلمين سُميَّ إبليس عندما رفض السجود لآدم واحتجَّ وأبلس من الرحمة، وعندما وسوس لآدم وحواء سُميَّ (شيطان).

- وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس:

بلس: الباء واللام والسين أصلٌ واحد، فالأصل اليأس، يُقال: أبلس إذا يئس وقالوا: من ذلك اشتق كأنَّهُ يئس من رحمة الله، ومن هذا الباب أبلس الرجل: سكت ومنه أبلست الناقة وهي مبلاسٌ إذا لم ترغ.

- وجاء عند الطبرسي: إبليس اسم أعجمي لا ينصرف في المعرفة للتعريف والعجمه، وقال الزجاج وغيره من النحويين: هو اسم أعجمي معرب واستدلوا على ذلك بامتناع صرفه وذهب قوم إلى أنَّهُ عربي مشتق من الإبلاس ووزنه أفعيل.

– وجاء في معجم ألفاظ القرآن للأصفهاني: الإبلاس: الحزن المعترض من شدة البأس، يقال أبلس ومنه اشتق إبليس.

– وفي المعجم الوسيط: أبَلسَ: سكت لحيرة أو انقطاع حجة.

– ولقد دُعيَّ إبليس بالأسفار التوراتية بعزازيل وبليعال والذي يعني بالعبرية الشرير عديم الفائدة، وأطلق عليه أيضاً بالعهد الجديد اسم المهلك ولوسيفر

(حامل الضياء) وصار اسمه ساتانا إيل " أي الشيطان " وبعل زبوب، وعند الزرادشتيه (انجرامانيو) "أمير الظلام" وعند المانويه " الأراكنه (الشياطين) مفردها أركون، وجاء أنَّ اسم إبليس أصل يوناني من " ديابولوس " الذي يعني المشتكي زوراً، ومن هذا الأصل اليوناني جاءت كلمة Devel أي الشيطان، وسنأتي لاحقاً على تفسير كلمة الشيطان، وجاء أيضاً في التوراة مستيما " رئيس الأرواح الشريرة" وبلعار.

إبليس عند أخوان الصفا

– جاء عند أخوان الصفا في جامعتهم:

إبليس: هو اسمٌ مشتق من الحيرة والضلال، ومن ذلك يقال: أبلس الرجل إذا انقطع وتحير وأوقف عن الأمر الذي هو أصلح له لو فعله، كذلك إبليس لما أُمر بالسجود لآدم أبلس، بمعنى تحير ووقف وكان تحيُّره ووقوفه عن السجود لآدم استصغاراً لهُ واستكباراً عليه، لما ظنه في نفسه من الجلالة، وأنَّهُ بقياسه قد بلغ

حدَّ الكمال، وهو بالحقيقةِ شخصٌ من بقايا أشخاص آخر دور الكشف الأول ممن كان قد لحق بعض شرائطه، ووقف على شيء من معلوماته، فلذلك قيل إنَّه كان من الجن، وإنَّهُ فسق عن أمر ربه، فلذلك كان يقال لمن لحق دور الستر من بقايا دور الكشف " الجن " إذ كانوا بنوعٍ مخالف لنوع دور أهل الستر.

وقد جاء في الخبر أنَّ إبليس لما خلق الله آدم كان يمرُّ به وهو مُلقى على باب الجنة وهو جسمٌ لا روحٍ فيه، وإنَّهُ كان ينقره ويركله برجله فيدوي، فيقول: سأظفر به فإنَّهُ أجوف.

فإذاً بالبرهان أنَّ إبليس هو شخصٌ تكبَّر عن قبول الحق.

والشيطان هو أول الأشخاص التابعين له على ذلك الأمر، المساعدين له فيه، القائمين بالمعاونة له في مقام النائبين في الضلالة منابه، وكذلك الأبالسة والشياطين أجمعون، هم موجودون في كل زمان مع كل من أقامه الله سبحانه من أنبيائه ورسله وأئمته وخلفائه، حتى يكون انقراضهم وفناؤهم بزوال دور الستر وظهور دور الكشف.

أمَّا إبليس الروحاني الذي يجري مجرى الدم من ابن آدم: فهو بمنزلة النفس الغضبية الشهوانية الحائدة عن التقوى المعتكفة على شهوات الدنيا، أمَّا شيطان الجسم، وشيطان النفس بالجسم الخالي من نور الحكمة الذي غَلَبَت نفسه

الغضبية على نفسه الناطقة فجذبتها إلى ذاتها وتابعتها إلى إرادتها فصارت مثلها.

– **فكل من غلب هواه على عقله، فهو إبليس،** وكل من أطاع نفسه الغضبيه وداخلته الحميَّة الجاهليَّة والعصبية للباطل فهو شيطان، فإن كان من أهل القول بظاهر التكليف من أمور التنزيل يرائي به الناس ليأكل أموالهم ويدعوهم إلى المحال وينمّق لهم زخرف المقال، ويظهر العبادة ويجن المكر والخيانة فهو من شياطين الإنس.

– وإن كان ممن يتعلق بالأمور التأويلية والأسرار المكنونة الملكوتية في الكتب النبوية المنزلة، فهو ينمق لهم زخارف المحال ويشير بالمنازل إلى رجال ليسوا هم الرجال، ويضع الساقط الوضيع في منزلة الجليل الرفيع، فهو يعبد مَنْ لم يُؤمر بعبادته ويدعو من استجاب لباطله إلى طاعته، فهو بين رجل سفلي يرفعه فوق منزلته ويعطيه ما لا يستحقه وبين آخر علوي يحطه عن منزلته ويضعه في غير موضعه فهو من شياطين الجن، يأكل الدنيا بالدين ويتبع سبيل المفسدين.

– وقالوا: أنَّهُ لما كان آدم جسماً ذا طبائع متضادة وجب لهُ الفناء، فكان بقاؤه مدة مقدرة له لتمام الأمر ونفاذ الحكم، ثم توفاه الله سبحانه إليه وجعل منزلته باقية في ولده ومقامه محفوظاً تتوارثه الصفوة الطاهرة من ولده.

– وكذلك إبليس لما كان شخصاً من الأشخاص التركيبية بنوع ما، وكان سؤاله النظرة من الله " أي أن تبقى منزلته محفوظة لمن يخلفه وينوب منابه ويقوم مقامه ويعمل عمله ويتمم دعوته، ويكمل معصيته" فكل عدوٍ قام بإزاء كل نبي بُعِثَ فهو إبليس، إذا كان يعمل مثل عمله ويقوم بمثل ما قام به، فكما أنَّ كل نبي هو بمنزلة آدم، كذلك كل عدوٍ لله ولأوليائه هو بمنزلة إبليس.

– وقالوا: إنَّ كلَّ من اهتدى وأجاب دعوة الأنبياء والمرسلين والأئمة الهادين والخلفاء الذين هم قيام الأمة المستحفظين للودائع، فمن عرفهم واتبع سبيلهم، واهتدى بهديهم فقد أخلص العبادة ونجا من الأبالسة من الجن والأنس الظاهرين بالعداوة والباطنيين الذين معه في جسمه الذين يجرون منه مجرى الدم، فإذا نجا وتخلص من شباكهم وتهذبت نفسه، وزكت أعماله، وحسنت أفعاله، كان ملكاً بالقوة ما دام مع الجسد، فإذا فارقت نفسه الجسد كان ملكاً بالفعل، ومن غفل عن دعوة الأنبياء ولم يستجب إليهم وتبع شياطين زمانه وفراعنة وقته، وانهمك في شهوات نفسه الدنية الرذلة فاتته الفوائد العقلية، خرج من جملة الذرية الطاهرة، وصارَ في حزب إبليس والشياطين الجسمانيين بالقوة فإذا مات صار شيطاناً بالفعل.

– وقالوا: إنَّ فاعل الخير خيرٌ كله، وإنَّ فاعل الشر شرٌّ كله، وإنَّ الخير إبطال الشر، وإنَّ الخير يدعو إلى البقاء والشَّر يدعو إلى الفناء، ولما كان البقاء من صفات الأزل القديم، والفناء من صفات العدم المتلاشي، وجب أن يكون

صاحب البقاء رب صاحب الفناء ومتقدم الوجود عليه، فوجبت له الوحدانية وزالت الثنوية، وصار الثاني تابعاً له، ولذلك قيل إنَّ الشر لا أصل لَهُ في الإبداع من جهة المبدع سبحانه، وإنَّ القضاء والقدر ليسا بشرٍّ وأنَّ المخلوق ليس مُعاناً على فعلِ الشّر.

وأنَّهُ سُميَّ عجز الأشياء لحدوث بعضها عن بعض شراً، بمعنى التخلف عن اللحوق بالخير الأفضل المتقدم عليه، فمتى غفل المفضول عن اللحوق بدرجة الفاضل، ورضي لنفسه بالمكان الخسيس الرزل فهو الشر المحض البعيد عن الخير.

والله سبحانه وتعالى يقول رداً على من يقول أنَّ الشر من قضاء الله وقدره:

(**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(٩٠)**)(النحل). انتهى

فالله سبحانه وتعالى خالق كل شيء، وتعالى أن يفيض الخير على قوم والشر على قوم، لأنَّه عدلٌ لا يجور وحكيم لا يظلم، يفيض خيَرهُ ونورَهُ على الجميع ولكن لاختلاف الخلق في القوابل والاستعدادات يختلفون بتلقي فيضه، كنور الشمس إذا مرَّ عبر الزجاج فإنَّهُ يتلوَّن حسب لون الزجاج وصفائه ويتعدد بتعدد القوابل، وكذلك الفيض على النفوس.

تصويب إبليس

لقد كان في المسلمين من يذهب إلى تصويب إبليس في الامتناع عن السجود، ويفضله على آدم.

فمن هؤلاء أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي الواعظ " أخو أبي حامد الغزالي الفقيه الشافعي"كان يتعصب لإبليس ويقول إنَّهُ سيد الموحدين، وقال يوماً على المنبر: " مَنْ لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق، أُمر أن يسجد لغير سيده فأبى!! وقال :

ولستُ بضارعٍ إلاَّ إليكم

وأمَّا غيركم حاشا وكلا

وقال مرة أخرى وقد ذُكر إبليس على المنبر: لم يدر ذلك المسكين أنَّ أظافر القضاء إذا حكَّت أدمت وأنَّ قُسي القدر إذا رمت أحمَّت!!

وكان لبعض الصوفيين شطحات في لغزِ إبليس فمنهم أبو يزيد البسطامي المتوفى /٢٦١/ هـ قال:

فمن آدم في البين

ومن إبليس لولا ك

فتنت الكل والكلَّ

مع الفتنة يهواكا

وأيضاً هناك أقوال في هذا الشأن للمقدسي، وأبي حيان التوحيدي، والشلمغاني، وغيرهم.

وجاء أيضاً عند الحلاج في طاسين الأزل والالتباس " قال الله لإبليس: ألاَّ تسجد أيُّها المهين ؟ فأجاب إبليس: مُحِبٌّ والمحبُ مهين إنَّكَ تقول مهين، وأنا قرأتُ في كتابٍ مبين ما يجري عليَّ ياذا القوةِ المتين، كيف أُذلُّ له، وقد خلقتني من نار وخلقته من طين، إني في الخدمة أقدم وفي الفضل أعظم وفي العلم والعمر أتم".

وجاء في كتاب جوهر الذات لفريد الدين العطار عن لسان إبليس: " لُعنتُ ولكنني غير يائس منك، فأنا أعرف كثيراً من أسرار رحمتك". وأيضاً تحكَّمَ بموضوع إبليس وحكايته توفيق الحكيم في قصته "الشهيد إبليس " وجاء عند الدكتور صادق العظم في كتابه نقد الفكر الديني ومأساة إبليس " أنَّ إبليس والشيطان، وما نُسب إليهما من الصفات القبيحة، إنَّما هو خيالٌ بشري ظلم للبشر وافتئات على الكتب المقدسة".

ويقول: إنَّني لا أريد معالجة قصة إبليس باعتبارها موضوعاً يدخل ضمن نطاق الإيمان الديني الصَّرف، ولا أريد أن أتكلم عنه باعتباره كائناً موجوداً أو حقيقاً،

وإنَّما أُريد دراسة شخصيته باعتبارها شخصية مثيولوجية أبدعتها ملكة وعقلية الإنسان الخرافية، وطوَّرها وضمَّنها خياله الخصب".

وقال: إنَّ الله طرد إبليس من الجنة، يجب أن لا نظن بأنَّ مثل هذه الحادثة قد وقعت في تاريخ الكون.

ويناقض نفسه ويقول: نعم كان إبليس عاصياً وجاحداً ولكن جحوده كان أعظم تقديس للذات الإلهية وأكبر مثل على التمسك بحقيقة التوحيد".

أصل إبليس

اختلف المفسرون في إبليس هل هو من الملائكة أم لا ؟

فمنهم من قال: أنَّه من الملائكة واحتج بالاستثناء، في قوله تعالى: (**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١**))(الحجر).

ومنهم من قال أنَّه من الجن " كالحسن البصري: " ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين وهو أصل الجن، مثلما آدم هو أصل البشر، ولقد توسم بأفعال الملائكة وتنسك وتعبد لذلك دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة، لقوله تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠**))(الكهف).

- وروى الطبري في تاريخه أنَّ إبليس كان إليه ملك السماء وملك الأرض، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنَّما سموا الجن لأنَّهم كانوا خزَّان الجنان، وكان إبليس رئيسهم ومقدمهم، وكان أصل خلقهم من نار السموم وكان اسمه " الحارث "

- وقال: وقد رويَّ أنَّ الجن كانت في الأرض، وأنَّهم أفسدوا فيها فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وطردهم إلى جزائر البحار، ثم تكبَّر في نفسه ورأى أنَّهُ قد صنع شيئاً عظيماً لم يصنعه غيره، وقال: وكان شديد الاجتهاد في العبادة.

- وقيل: كان اسمه عزازيل، وأنَّ الله تعالى جعله حكماً وقاضياً في سكان الأرض قبل خلق آدم، فدخله الكبر والعجب لعبادته واجتهاده وحكمه في سكان الأرض وقضائِه بينهم، فانطوى على المعصية حتى كان من أمره مع آدم ما كان".

- وجاء في تفسير الطبرسي خبراً مرفوعاً عن جميل بن دراج قال: سألت الإمام الصادق (عليه السلام) عن إبليس أكان من الملائكة ؟ أو كان يلي شيئاً من أمر السماء ؟ فقال: لم يكن من الملائكة، ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء، وكان من الجن، وكان مع الملائكة، وكانت الملائكة ترى أنَّهُ منها، وكان الله سبحانه يعلم أنَّه ليس منها، فلما أُمِرَ بالسجود لآدم كان منه الذي كان.

– وروي عن ابن عباس وابن مسعود أنَّه كان من الملائكة، وقالوا: لو كان من غير الملائكة لما كان ملوماً بترك السجود، فإنَّ الأمر يتناول الملائكة دون غيرهم، ويزيده بياناً قوله تعالى: ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢)** ﴾(الأعراف).

– وروي عن ابن عباس أنَّهُ قال : إنَّ الملائكة كانت تقاتل الجن فسبيَّ إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة فتعبَّد معها بالأمر بالسجود لآدم، فسجدوا وأبى إبليس، فلذلك قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا(٥٠)** ﴾(الكهف).

وجاء في الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) في ذم إبليس على استكباره وتركه السجود لآدم (عليه السلام).

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَبِسَ الْعِزَّ وَالْكِبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمىً وَحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلاَلِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذلِكَ مَلاَئِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ، لِيمِيزَ المُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ الْقُلُوبِ، وَمَحْجُوبَاتِ الْغُيُوبِ: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣** ﴾(ص).إلاَّ إِبْلِيسَ اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ، وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ

الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ. أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَأَعَدَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ سَعِيراً ؟!

وَلَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُور يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ، وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُوَاؤُهُ، وَطِيب يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ، لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً، وَلَخَفَّتِ الْبَلْوَى فِيهِ عَلَى المَلائِكَةِ. وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ، تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ، وَنَفْياً لِلاسْتِكَبَارِ عَنْهُمْ، وَإِبْعَاداً لِلْخُيَلاَءِ مِنْهُم. فَاعْتَبِروا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ، إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ، وَجَهْدَهُ الْجَهِيدَ، وَكَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلاَفِ سَنَةٍ، لاَ يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الْآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ.

فَمَنْ ذا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ ؟ كَلاَّ، مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً. إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّماءِ وأَهْلِ الْأَرْضِ لَوَاحِدٌ، وَمَا بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمىً حَرَّمَهُ عَلَى الْعَالَمينَ.

فَاحْذَرُوا عَدُوَّ اللهِ أَنْ يُعْدِيَكُمْ بِدَائِهِ، وَأَنْ يَسْتَفِزَّكُمْ بِنِدَائِهِ، وَأَنْ يُجْلِبَ عَلَيْكُمْ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ. فَلَعَمْرِي لَقَدْ فَوَّقَ لَكُمْ سَهْمَ الْوَعِيدِ، وَأَغْرَقَ لَكُم بِالنَّزْعِ الشَّدِيدِ، وَرَمَاكُمْ مِنْ مَكَان قَرِيب، فَقَالَ: رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، قَذْفاً بِغَيْبٍ بَعِيدٍ، وَرَجْماً بِظَنٍّ غَيْرِ مُصِيبٍ، صَدَّقَهُ بِهِ أَبْنَاءُ الْحَمِيَّةِ، وَإِخْوَانُ الْعَصَبِيَّةِ، وَفُرْسَانُ الْكِبْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ. حَتَّى إِذَا انْقَادَتْ لَهُ الْجَامِحَةُ مِنْكُمْ، وَاسْتَحْكَمَتِ الطَّمَاعِيَّةُ مِنْهُ فِيكُمْ، فَنَجَمَتِ الْحَالُ مِنَ السِّرِّ الْخَفي إِلَى الْأَمْرِ الْجَلِيِّ، اسْتَفْحَلَ سُلْطَانُهُ عَلَيْكُمْ، وَدَلَفَ بِجُنُودِهِ نَحْوَكُمْ، فَأَقْحَمُوكُمْ وَلَجَاتِ الذُّلِّ، وَأَحَلُّوكم وَرَطَاتِ الْقَتْلِ، وَأَوْطَأُوكُمْ إِثْخَانَ الْجِرَاحَةِ، طَعْناً فِي عُيُونِكُم، وَحَزّاً فِي حُلُوقِكُمْ، وَدَقّاً لِمَناخِرِكُمْ، وَقَصْداً لِمَقَاتِلِكُمْ، وَسوقاً بِخَزَائِمِ الْقَهْرِ إِلَى النَّارِ المعَدَّةِ لَكُمْ، فَأَصْبَحَ أَعْظَمَ فِي دِينِكُمْ جَرْحاً، وَأَوْرَى فِي دُنْيَاكُمْ قَدْحاً، مِنَ الَّذِينَ أَصْبَحْتُمْ لَهُمْ مُنَاصِبِينَ، وَعَلَيْهِمْ مُتَأَلِّبِينَ. فَاجْعَلُوا عَلَيْهِ حَدَّكُمْ، وَلَهُ جَدَّكُمْ ، فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ فَخَرَ عَلَى أَصْلِكُمْ، وَوَقَعَ في حَسَبِكُمْ، وَدَفَعَ فِي نَسَبِكُمْ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ عَلَيْكُمْ، وَقَصَدَ بِرَجِلِهِ سَبِيلَكُمْ، يَقْتَنِصُونَكُمْ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيَضْرِبُونَ مِنْكُمْ كُلَّ بَنَانٍ، لاَ تَمْتَنِعُونَ بِحِيلَةٍ، وَلاَ تَدْفَعُونَ بِعَزِيمَةٍ، فِي حَوْمَةِ ذُلٍّ، وَحَلْقَةِ ضِيقٍ، وَعَرْصَةِ مَوْتٍ، وَجَوْلَةِ بَلاَءٍ. فَأَطْفِئُوا مَا كَمَنَ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ نِيرَانِ الْعَصَبِيَّةِ، وَأَحْقَادِ الْجَاهِلِيَّةِ، وإِنَّمَا تِلْكَ الْحَمِيَّةُ تَكُونُ فِي الْمُسْلِمِ مِنْ خَطَرَاتِ الشَّيْطَانِ وَنَخَوَاتِهِ، وَنَزَغَاتِهِ وَنَفَثَاتِهِ. وَاعْتَمِدُوا وَضْعَ التَّذَلُّلِ عَلَى رُؤُوسِكُمْ، وَإِلْقَاءَ التَّعَزُّزِ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ، وَخَلْعَ التَّكَبُّرِ مِنْ أَعْنَاقِكُمْ. وَاتَّخِذُوا التَّوَاضُعَ مَسْلَحَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ، فَإِنَّ لَهُ مِنْ كُلِّ أُمَّة جُنُوداً وأَعْوَاناً، وَرَجِلاً وَفُرْسَاناً، وَلاَ تَكُونُوا كالْمُتَكَبِّرِ عَلَى ابْنِ أُمِّهِ مِنْ غَيْرِ مَا فَضْلٍ جَعَلَهُ اللهُ فِيهِ سِوَى مَا أَلْحَقَتِ الْعَظَمَةُ بِنَفْسِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْحَسَدِ، وَقَدَحَتِ الْحَمِيَّةُ فِي قَلْبِهِ مِنْ نَارِ

الْغَضَبِ، وَنَفَخَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ مِنْ رِيحِ الْكِبْرِ الَّذِي أَعْقَبَهُ اللهُ بِهِ النَّدَامَةَ، وَأَلْزَمَهُ آثَامَ الْقَاتِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَلاَ وَقدْ أَمْعَنْتُمْ فِي الْبَغْيِ، وَأَفْسَدْتُمْ فِي الْأَرْضِ، مُصَارَحَةً لِلَّهِ بِالمنَاصَبَةِ، وَمُبَارَزَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِالُمحَارَبَةِ. فَاللهَ اللهَ في كِبْرِ الْحَمِيَّةِ، وَفَخْرِ الْجَاهلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطانِ، اَلَّتِي خَدَعَ بِهَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ، والْقُرُونَ الْخَالِيَةَ، حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمهَاوِي ضَلاَلَتِهِ، ذُلُلاً عَنْ سِيَاقِهِ، سُلُساً فِي قِيَادِهِ، أَمْراً تَشَابَهَتِ الْقُلُوبُ فِيهِ، وَتَتَابَعَتِ الْقُرُونُ عَلَيْهِ، وَكِبْراً تَضَايَقَتِ الصُّدُورُ بِهِ.

ألاَ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنْ طَاعَةِ سَادَاتِكُمْ وَكُبَرَائِكُمْ!!

الَّذِينَ تَكَبَّرُوا عَنْ حَسَبِهِمْ، وَتَرَفَّعُوا فَوْقَ نَسَبِهِمْ، وَأَلْقَوُا الْهَجِينَةَ عَلَى رَبِّهِمْ، وَجَاحَدُوا اللهَ مَا صَنَعَ بِهِمْ، مُكَابَرَةً لِقَضَائِهِ، وَمُغَالَبَةً لِآلائِهِ، فَإِنَّهُمْ قَوَاعِدُ أَسَاسِ الْعَصَبِيَّةِ، وَدَعَائِمُ أَرْكَانِ الْفِتْنَةِ، وَسُيُوفُ اعْتِزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تَكُونُوا لِنِعَمِهِ عَلَيْكُمْ أَضْدَاداً، وَلاَ لِفَضْلِهِ عِنْدَكُمْ حُسَّاداً، وَلاَ تُطِيعُوا الْأَدْعِيَاءَ الَّذِينَ شَرِبْتُمْ بِصَفْوِكُمْ كَدَرَهُمْ، وَخَلَطْتُمْ بِصِحَّتِكُمْ مَرَضَهُمْ، وَأَدْخَلْتُمْ فِي حَقِّكُمْ بَاطِلَهُمْ، وَهُمْ أَسَاسُ الْفُسُوقِ، وَأَحْلاَسُ الْعُقُوقِ، اتَّخَذَهُمْ إِبْلِيسُ مَطَايَا ضَلاَلٍ، وَجُنْداً بِهِمْ يَصُولُ عَلَى النَّاسِ، وَتَرَاجِمَةً يَنْطِقُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ، اسْتِرَاقاً لِعُقُولِكُمْ، وَدُخُولاً فِي عُيُونِكُمْ، وَنَفْثاً فِي أَسْمَاعِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ مَرْمَى نَبْلِهِ، وَمَوْطِىءَ قَدَمِهِ، وَمأْخَذَ يَدِهِ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا أَصَابَ الْأُمَمَ المسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ وَصَوْلاَتِهِ، وَوَقَائِعِهِ وَمَثُلاَتِهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَثَاوِي خُدُودِهِمْ، وَمَصَارِعِ جُنُوبِهِمْ، وَاسْتَعِيذوا بِاللهِ مِنْ لَوَاقِحِ الْكبْرِ، كَمَا تَسْتَعِيذُونَهُ مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ، فَلَوْ رَخَّصَ اللهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَد مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِخَاصَّةِ أَنبِيَائِهِ وَأَولِيائِهِ، وَلكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَّهَ إِلَيْهِمُ التَّكَابُرَ، وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ، فَأَلْصَقُوا بِالْأَرْضِ خُدُودَهُمْ، وَعَفَّرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ. وَخَفَضُوا أَجْنِحَتَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا أَقْوَماً مُسْتَضْعَفِينَ، قَدِ اخْتَبَرَهُمُ اللهُ بِالْمَخْمَصَةِ، وَابْتَلاَهُمْ بِالْمَجْهَدَةِ، وَامْتَحَنَهُمْ بِالْمَخَاوِفِ، وَمَخَضَهُمْ بِالْمَكَارِهِ، فَلاَ تَعْتَبِرُوا الرِّضَى وَالسُّخْطَ بِالمالِ وَالْوَلَدِ جَهْلاً بِمَوَاقِعِ الْفِتْنَةِ، وَالاِخْتِبَارِ فِي مَوَاضِعِ الْغِنَى وَالاِقْتِدَارِ، فَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: (**أَيَحْسَبُونَ أَنَّ مَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ ٥٦**)(المؤمنون). فَإِنَّ اللهَ سْبْحَانَهْ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَوْلِيَائِهِ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي أَعْيُنِهِمْ. وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ (عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ) عَلَى فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ – بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوامَ عِزِّهِ، فَقَالَ: أَلاَ تَعْجبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ، وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ؟ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ! وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الْذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّماءِ وَوُحُوشَ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ، وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ،

وَبطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ مَعَانِيَهَا، وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيما تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَةٍ تَمْلأُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنىً، وَخَصَاصَة تَمْلاَُ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ أَذىً. وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لاَ تُرَامُ، وَعِزَّةٍ لاَ تُضَامُ، وَمُلْكٍ تُمَدُّ نُحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الاعَتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ مِنَ الاسْتَكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ، أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ، وَالِاسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً، لاَ تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ، وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبلْوَى وَالاخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

أَلاَ تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، اخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ، إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ، بَأَحْجَارٍ لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلاَ تُبْصِرُ وَلاَ تَسْمَعُ، فَعَجَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ (الَّذِي جَعَلَهُ لِلنَّاسِ قِيَاماً. ثُمَّ وَضَعَهُ بِأَوْعَرِ بِقَاعِ الْأَرْضِ حَجَراً، وَأَقَلِّ نَتَائِقِ الدُّنْيَا مَدَراً، وَأَضْيَقِ بُطُونِ الْأَوْدِيَةِ قُطْراً، بَيْنَ جِبَالٍ خَشِنَةٍ، وَرِمَالٍ دَمِثَةٍ ، وَعُيُونٍ وَشِلَةٍ ، وَقُرىً مُنْقَطِعَةٍ، لا يَزْكُو بِهَا خُفٌّ وَلاَ حَافِرٌ وَلاَ ظِلْفٌ). ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ، فَصَارَ مَثَابَةً لِمُنْتَجَعِ أَسْفَارِهِمْ، وَغَايَةً لِمُلْقَى رِحَالِهِمْ، تَهْوِي إِلَيْهِ ثِمَارُ الْأَفْئِدَةِ مِنْ مَفَاوِزِ

قِفَارٍ سَحِيقَةٍ، وَمَهَاوِي فِجَاجٍ عَمِيقَةٍ، وَجَزَائِرِ بِحَارٍ مُنْقَطِعَةٍ، حَتَّى يَهُزُّوا مَنَاكِبَهُمْ ذُلُلاً يُهَلِّلُونَ لِلَّهِ حَوْلَهُ، وَيَرْمُلُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ شُعْثاً غُبْراً لَهُ. قَدْ نَبَذُوا السَّرَابِيلَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَشَوَّهُوا بِإِعْفَاءِ الشُّعُورِ مَحَاسِنَ خَلْقِهِمْ، ابْتِلاَءً عَظِيماً، وَامْتِحَاناً شَدِيداً، وَاخْتِبَاراً مُبِيناً، وَتَمْحِيصاً بَلِيغاً، جَعَلَهُ اللهُ سَبَباً لِرَحْمَتِهِ، وَوُصْلَةً إِلَى جَنَّتِهِ. وَلَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ، وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ، بَيْنَ جَنَّاتٍ وَأَنْهَارٍ، وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ، جَمَّ الْأَشْجَارِ، دَانِيَ الِّثمارِ، مُلْتَفَّ الْبُنَى، مُتَّصِلَ الْقُرَى، بَيْنَ بُرَّةٍ سَمْرَاءَ، وَرَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، وَأَرْيَافٍ مُحْدِقَةٍ، وَعِرَاصٍ مُغْدِقَةٍ، وَرِيَاضٍ نَاضِرَةٍ، وَطُرُقٍ عَامِرَةٍ، لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلاَءِ. وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا، وَ الْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا، بَيْنَ زُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ، وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، وَنُورٍ وَضِيَاءٍ، لَخَفَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ، وَلَوَضَعَ مُجَاهَدَةَ إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ، وَلَنَفَي مُعْتَلَجَ الرَّيْبِ مِنَ الْنَّاسِ. وَلكِنَّ اللهَ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَلْوَانِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ، إِخْرَاجاً لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَاناً لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلْ ذَلِكَ أَبْوَاباً فُتُحاً إِلَى فَضْلِهِ، وَأَسْبَاباً ذُلُلاً لِعَفْوِهِ.

فَاللهَ اللهَ فِي عَاجِلِ الْبَغْيِ، وَآجِلِ وَخَامَةِ الظُّلْمِ، وَسُوءِ عَاقِبَةِ الْكِبْرِ، فَإِنَّهَا مَصْيَدَةُ إِبْلِيسَ الْعُظْمَى، وَمَكِيدَتهُ الْكُبْرَى، الَّتِي تُسَاوِرُ قُلُوبَ الرِّجَالِ مُسَاوَرَةَ السُّمُومِ الْقَاتِلَةِ، فَمَا تُكْدِي أَبَداً، وَلاَ تُشْوِي أَحَداً، لاَ عَالِماً لِعِلْمِهِ، وَلاَ مُقِلاًّ فِي طِمْرِهِ. وَعَنْ ذلِكَ مَا حَرَسَ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَوَاتِ وَالزَّكَوَاتِ، وَمُجَاهَدَةِ

الصِّيَامِ فِي الْأَيَّامِ الْمَفْرُوضَاتِ، تسْكِيناً لِأَطْرَافِهِمْ، وَتَخْشِيعاً لِأَبْصَارِهِمْ، وَتَذْلِيلاً لِنُفُوسِهِمْ، وَتَخْفِيضاً لِقُلُوبِهِمْ، وَإِذْهَاباً لِلْخُيَلاَءِ عَنْهُمْ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَعْفِيرِ عِتَاقِ الْوُجُوهِ بالتُّرَابِ تَوَاضُعاً، وَالْتِصَاقِ كَرَائِمِ الْجَوَارِحِ بِالْأَرْضِ تَصَاغُراً، وَلُحُوقِ الْبُطُونِ بِالمتونِ مِنَ الصِّيَامِ تَذَلُّلاً، مَعَ مَا فِي الزَّكَاةِ مِنْ صَرْفِ ثَمَرَاتِ الْأَرْضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْمَسْكَنَةِ وَالْفَقْرِ.

انْظُرُوا إِلَى مَا فِي هذِهِ الْأَفْعَالِ مِنْ قَمْعِ نَوَاجِمِ الْفَخْرِ، وَقَدْعِ طَوَالِعِ الْكِبْرِ! وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَمَا وَجَدْتُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ يَتَعَصَّبُ لِشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، إلاَّ عَنْ عِلَّةٍ تَحْتَمِلُ تَمْوِيهَ الْجُهَلاَءِ، أَوْ حُجَّة تَلِيطُ بِعُقُولِ السُّفَهَاءِ غَيْرَكُمْ، فَإِنَّكُمْ تَتَعَصَّبُونَ لِأَمْر مَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ وَلاَ عِلَّةٌ. أَمَّا إِبْلِيسُ فَتَعَصَّبَ عَلَى آدَمَ لِأَصْلِهِ، وَطَعَنَ عَلَيْهِ فِي خِلْقَتِهِ، فَقَالَ: أَنَا نَارِيٌّ وَأَنْتَ طِينِيٌّ.

وَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ مِنْ مُتْرَفَةِ الْأُمَمِ، فَتَعَصَّبُوا لِآثَارِ مَوَاقِعِ النِّعَمِ، فَقَالُوا: (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) فَإِنْ كَانَ لاَبُدَّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ، فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الْخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الْأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ، الَّتِي تَفَاضَلَتْ فِيهَا الْمُجَدَاءُ وَالنُّجَدَاءُ مِنْ بُيُوتَاتِ الْعَرَبِ وَيَعَاسِيبِ الْقَبَائِلِ، بِالْأَخْلاَقِ الرَّغِيبَةِ، وَ الْأَحْلاَمِ الْعَظِيمَةِ، وَ الْأَخْطَارِ الْجَلِيلَةِ، وَ الْآثَارِ الَمحْمُودَةِ. فَتَعَصَّبُوا لِخِلاَلِ الْحَمْدِ مِنَ الْحِفْظِ لِلْجِوَارِ، وَالْوَفَاءِ بِالذِّمَامِ، وَالطَّاعَةِ لِلْبِرِّ، وَالْمَعْصِيَةِ لِلْكِبْرِ، وَ الْأَخْذِ بِالْفَضْلِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْبَغْيِ، وَ الْإِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، و الْإِنْصَافِ لِلْخَلْقِ، وَالْكَظْمِ لِلْغَيْظِ، وَاجْتِنَابِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ. واحْذَرُوا مَا نَزَلَ بِالْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مِنَ

الْمَثُلاَتِ بِسُوءِ الْأَفْعَالِ، وَذَمِيمِ الْأَعْمَالِ، فَتَذَكَّرُوا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ أَحْوَالَهُمْ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ. فَإِذَا تَفَكَّرْتُمْ فِي تَفَاوُتِ حَالَيْهِمْ، فَالْزَمُوا كُلَّ أَمْرٍ لَزِمَتِ الْعِزَّةُ بِهِ حَالَهُمْ، وَزَاحَتِ الْأَعْدَاءُ لَهُ عَنْهُمْ، وَمُدَّتِ الْعَافِيَةُ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَانْقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الْكَرَامَةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُمْ مِنَ الاجْتِنَابِ لِلْفُرْقَةِ، وَاللُّزُومِ لِلْأُلْفَةِ، وَالتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، وَالتَّوَاصِي بِهَا. وَاجْتَنِبُوا كُلَّ أَمْرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وَتَشَاحُنِ الصُّدُورِ، وتَدَابُرِ النُّفُوسِ، وَتَخَاذُلِ الْأَيْدِي. وَتَدَبَّرُوا أَحْوَالَ الْمَاضِينَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ قَبْلَكُمْ، كَيْفَ كَانُوا فِي حَالِ التَّمحِيصِ وَالْبَلاَءِ. أَلَمْ يَكُونُوا أَثْقَلَ الْخَلاَئِقِ أَعْبَاءً، وَأَجْهَدَ الْعِبَادِ بَلاَءً، وَأَضْيَقَ أَهْلِ الدُّنْيَا حَالاً. اتَّخَذَتْهُمُ الْفَراعِنَةُ عَبِيداً فَسَامُوهُم سُوءَ الْعَذَابِ، وَجَرَّعُوهُمُ الْمُرَارَ، فَلَمْ تَبْرَحِ الْحَالُ بِهِمْ فِي ذُلِّ الْهَلَكَةِ وَقَهْرِ الْغَلَبَةِ، لاَ يَجِدُونَ حِيلَةً فِي امْتِنَاعٍ، وَلاَ سَبِيلاً إِلَى دِفَاعٍ، حَتَّى إِذَا رَأَى اللهُ جِدَّ الصَّبْرِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى فِي مَحَبَّتِهِ، وَ الاحْتِمالَ لِلْمَكْرُوهِ مِنْ خَوْفِهِ، جَعَلَ لَهُمْ مِنْ مَضَايِقِ الْبَلاَءِ فَرَجاً، فَأَبْدَلَهُمُ الْعِزَّ مَكَانَ الذُّلِّ، وَالْأَمْنَ مَكَانَ الْخَوْفِ، فَصَارُوا مُلُوكاً حُكَّاماً، وأَئِمَّةً أَعْلاَماً، وَبَلَغَتِ الْكَرَامَةُ مِنَ اللهِ لَهُمْ مَا لَمْ تَذْهَبِ الْآمَالُ إِلَيْهِ بِهِمْ.

وقال عليه السلام في خطبة أخرى، وذكر فيها خلق آدم إلى أن قال:

وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الْإِذْعَانِ بالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **(اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ)** اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ

الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْماماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: (**إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**). ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلاً ، وَبِالْإِغْتِرَارِ نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ.

وقال عليه السلام موصياً ويذم أتباع الشيطان:

" أوصيكم بتقوى الله الذي أَعذرَ بِما أنذر، واحتجَّ بما نهج، وحذَّركم عَدواً نَفَذ في الصدور خفيّاً، ونَفَثَ في الآذان نجياً، فأضَّل وأردى ووعد فمنَّى، وزين سيئات الجرائم، وهون موبقات العظائم، حتى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته، أنكر ما زيَّن واستعظم ما هوَّن، وحذَّر ما أمَّنَ.

وقال أيضاً عليه السلام " يذم أتباع الشيطان:

اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكاً، واتخذهم لَهُ أشراكاً، فباض وفرَّخ في صدورهم، ودبَّ ودرج في حجورهم، فنظر بأعينهم، ونطق بألسنتهم، فركب بهم الزلل، وزين لهم الخطل، فِعْلَ من قد شركه الشيطان في سلطانه، ونطق بالباطل على لسانه.

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآلهِ) في خطبة الوداع:

يا أيَّها الناس إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبدَ بأرضكم هذه ولكنه قد رضيَّ أن يُطاع فيما سوى ذلك فيما تحتقرون من أعمالكم.

- وسئل (صلى الله عليه وآلهِ) يا رسول الله وفي الناس شياطين ؟ قال: نعم أَو ما تقرأ قول الله وشاركهم في الأموال والأولاد.*[10]

- وقال(صلى الله عليه وآلهِ): الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.*[11]

- وجاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنَّهُ قال: إنَّ أول من قاس إبليس عندما قال: أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين.*[12]

- فلا بُدَّ لنا من خلال استعراضنا بعض ما ورد في القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم (صلى الله عليه وآلهِ) والعترة الطاهرة (عليهم السلام) من ذكر إبليس ورفضه الأمر الإلهي بالسجود لآدم وتكبره عليه، وأيضاً وسوسة الشيطان لآدم وحواء (الجنس البشري) وإغوائهما بمخالفة الأمر الإلهي أيضاً، والأكل من الشجرة التي نُهيا عنها، وعن هذه الحرية والاستطاعة الممنوحة للإنسان للاختيار، **إمَّا تنفيذ الأمر الإلهي كما فعلت الملائكة بالسجود لآدم، وإمَّا مخالفته كما فعل إبليس، فالله سبحانه حاسب الإنسان بتلك الحرية الموهوبة**، وهذه

[10] - بحار الأنوار.

[11] -كنز العمال.

[12] - الاختصاص للشيخ المفيد.

الحرية هي ضحد لمزاعم من قال إنَّ الله سبحانه أجبر العباد على ارتكاب المعاصي وقسرهم على جميع أفعالهم خيرها وشرها وهذا منافي للعدل، لأنَّه لا يجوز أن يجبرهم على ارتكاب المعاصي ويعاقبهم بعدها وهو القائل سبحانه:

﴿ **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** (٤٩)﴾(الكهف).

- وقوله سبحانه: ﴿ **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** (٤٤)﴾(يونس).

- إنَّ الله سبحانه وتعالى يقسر الناس على أشكالهم وألوانهم وأعمارهم ولا يقسرهم على أعمالهم.

- ولا نقول أنَّه فوض إلى الناس اختيار أمرهم ونهيهم وأهملهم، ونكون بذلك نسبنا العجز إلى الله، تعالى عن ذلك وأبطلنا الوعد والوعيد بل كما قال الإمام الصادق (عليه السلام): لا جبر ولا تفويض بل منزلةٌ بين منزلتين.

وسنذكر طرفاً من أخبار القضاء والقدر وتكليف الله للخلق بالمعارف والعبادات والحكمة من ذلك كما أوردها العلماء.

جاء في الاحتجاج:

مرفوعاً إلى هشام بن الحكم قال: سأل زنديق الإمام الصادق (عليه السلام) فقال له : أفمن حكمته أن جعل لنفسهِ عدواً وقد كان ولا عدو له ؟ فخلق كما زعمت إبليس فسلّطهُ على عبيده يدعوهم إلى خلاف طاعتهِ ؟ ويأمرهم بمعصيته ؟

وجعل له من القوة كما زعمتَ يَصلُ بلطف الحيلة إلى قلوبهم ؟ فيوسوس إليهم؟ فيشككهم في ربهم ويلبس عليهم دينهم ؟ فيزيلهم عن معرفته ؟ حتى أنكر قوم لَمَّا وسوس إليهم ربوبيته وعبدوا سواه، فَلِمَ سلط عدوه على عبيده وجعل له السبيل إلى إغوائهم ؟

قال الإمام: إنَّ هذا العدو الذي ذكرت لا يضرَّه عداوته، ولا ينفعه ولايته، وعداوته لا تنقص من ملكه شيئاً، وولايته لا تزيد فيه شيئاً وإنَّما يُتَّقى العدو إذا كان في قوةٍ يضر وينفع، إن همَّ بملكِ أخذه، أو بسلطانٍ قهرَّه، فأمَّا إبليس فعبدٌ خلقه ليعبده ويوحِّده وقد عَلِمَ حين خلقه ما هو، وإلى ما يصير إليه، فلم يزل يعبده مع ملائكته حتى امتحنه بسجود آدم فامتنع من ذلك حسداً وشقاوة، غلبت عليه فلعنه عند ذلك وأخرجه عن صفوف الملائكة، وأنزله إلى الأرض ملعوناً مدحوراً، فصار عدو آدم وولده بذلك السبب، وما له من السلطة على ولده إلاَّ الوسوسة والدعاء إلى غير السبيل، وقد أقرَّ مع معصيته لربهِ بالربوبية.

وأيضاً بالاحتجاج:

عن هشام بن الحكم عن الإمام الصادق (عليه السلام) رداً على القائلين بالجبرية وقد سأله زنديق فقال: أخبرني عن الله عزَّ وجلَّ كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين موحدين، وكان على ذلك قادراً ؟

قال الإمام: لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنَّ الطاعة إذا ما كانت فعلهم لم تكن جنة ولا نار، ولكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، واحتجَّ عليهم برسلهِ، وقطع عذرهم بكتبه، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون، ويستوجبون بطاعتهم له الثواب وبمعصيتهم إيَّاه العقاب.

قال: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشر من العبد هو فعله ؟

قال الإمام: العمل الصالح، العبد يفعله والله بهِ أمره، والعمل الشر، العبد يفعله والله عنه نهاه .

قال: أليس فَعَلهُ بالآلة التي ركَّبها فيه ؟

قال: نعم ولكن بالآلة التي عمل بها الخير قدر بها على الشر الذي نهاه عنه.

قال: أفا إلى العبد من الأمر شيء ؟

قال: ما نهاه الله عن شيء إلاَّ وقد عَلِمَ أنَّهُ يطيق تركه، ولا أمره بشيء إلاَّ وقد عَلِمَ أنَّهُ يستطيع فعله، لأنَّهُ ليس من صفته الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

وجاء أيضاً بالاحتجاج:

خبراً مرفوعاً إلى الإمام الرضا (عليه السلام) يقول: سُئل أبي (عليه السلام) هل منعَ الله عما أمرَ بهِ، وهل نهى عما أراد، وهل أعان على ما لم يرد ؟

فقال: أمَّا ما سألتَ هل منع الله عما أمرَ بهِ ؟ فلا يجوز ذلك ولو جاز ذلك لكان قد منع إبليس عن السجود لآدم، ولو منع إبليس لعذَرَهُ ولم يلعنه، وأمَّا ما سألتَ هل نهى الله عما أراد ؟ فلا يجوز ذلك، ولو جاز ذلك لكان حيثُ نهى آدم عن أكل الشجرة أراد منه أكلها، ولو أراد منه أكلها ما نادى عليه صبيان الكتاتيب: (**وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١)**)(طه).

والله تعالى لا يجوز عليه أن يأمر بشيء ويريد غيره.

وأمَّا ما سألتَ عنه من قولك هل أعان على ما لم يُرد ؟ فلا يجوز ذلك وجلَّ الله تعالى أن يعين على قتل الأنبياء وتكذيبهم والحسين والفضلاء من ولده.

وجاء في الاحتجاج أيضاً:

عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنَّهُ سأله رجل بعد انصرافه من الشام فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام أبقضاءٍ وقدر ؟

فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام): نعم يا شيخ ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن وادٍ إلاَّ بقضاء من الله وقدر.

فقال الرجل: عند الله أحتسب عنائي، والله مالي أرى لي من الأجر شيئاً.

فقال علي (عليه السلام): بلى فقد عظَّم الله لكم الأجر في مسيركم وأنتم ذاهبون، وعلى منصرفكم وأنتم منقلبون، ولم تكونوا في شيء، من حالاتكم مُكرهين ولا إليه مضطرين.

فقال الرجل: وكيف لا نكون مضطرين والقضاء والقدر ساقانا ؟ وعنهما كان مسيرنا ؟

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) لعلك أردت قضاءً لازماً، وقدراً حتماً، ولو كانَ كذلك لبطل الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد، والأمر من الله والنهي، وما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب، ولا محمدة لمحسن، ولا كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المذنب، ولا المذنب أولى بعقوبة الذنب من المحسن، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان، وجنود الشيطان، وخصماء الرحمن، وشهداء الزور والبهتان، وأهل العمى والطغيان، قدرية هذه الأمة ومجوسها، إنَّ الله تعالى أمراً تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلَّف يسيراً، ولم يُعصَّ مغلوباً، ولم يُطع مكرهاً، ولم يرسل الرسل هزلاً، ولم ينزل القرآن عبثاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً،: (**ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ** (٢٧))(ص).

وسَأَلَ رجل الإمام الصادق (عليه السلام) عن القضاء والقدر ؟

فقال: ما استطعت أن تلوم العبد عليه فهو منه، وما لم تستطع أن تلوم العبد عليه فهو من فعل الله، يقول الله تعالى للعبد: لَمَ عصيتَ ؟ لِمَ فسقتٍ ؟ لِمَ شَربتْ ؟ الخمر لِمَ زينَتْ ؟ فهذا فعل العبد، ولا يقول له لِمَ مرضتْ ؟ لِمَ ابيضضت ؟ لِمَ أسوددت ؟ لأنَّه من فعل الله تعالى.

وجاء عن الفيلسوف والشاعر الكبير المكزون (قُدّس سره)

كما أورد " د – أسعد علي " في كتابه معرفة الله والمكزون – اعلم علمَّك الله الخيرات، إنَّ سبب فرض ما افترضه الله على عباده من معرفته وتوحيده والتصديق به والإخلاص له، ونفي الصفات عنه، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه، وإتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وتعليق الثواب بطاعته والعقاب بمخالفته مع استغنائه عن طاعة المطيعين، وعدم تضرره بمعصية العاصين، وهو من جهة ما اقتضته الحكمة، في وجود الوجود على ما هو عليه من الدنيء والشريف، والقوي والضعيف، والخير والشر، والإيمان والكفر، ليجري ذلك في قسطاس العدل إلى الداني والقاصي والمطيع والعاصي، وذلك بعد أن وهب للمكلفين استطاعة وافية بالتكليف، وقدرةً على تركه، والشاهد بذلك قوله تعالى: (**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٢٦٨**))(البقرة). لقطع المعذرة في ترك القيام به، وجعلَ ذلك التكليف إتماماً لجودهِ على أهل وجوده، إذ كان النعيم الدائم والحياة السرمدية منوطين بما كلف الله عباده من المعرفة، إذْ به تخرج النفوس من ظلمة الجهل إلى نور العقل، بحقائق الأسرار الإلهية والأشخاص النورانية، الممدة بقواها لنفوس الأبرار وتلك هي اللذة الباقية والعيشة الراضية.

فلذلك كان التكليف تمام الوجود لما فيه بلوغ النفوس الكمال الممكن لها الذي لا يحصل بدونه، وهذا التكليف الأول من الله تعالى، في عالم الظل والشبح عند وقوع الاعتراض، في الأخبار الصادرة إلى النفوس لقوله تعالى :

(**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** (**٣٠**))(البقرة).

وهي ملائكة بتجردها عن الأجسام في عالم الملكوت بقولهم: (**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** (**٣٠**))(البقرة).

والشك الواقع في المتجلِّي من المتجَّلى له حين قال:

(**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ** (**١٢**))(الأعراف).

ولم يكن ما شهِّدهُ من كثافة صورة المتجلِّي مع انتفاء الجسم عن ذاته، إلاَّ من جهة ظلمة الاعتراض، في مقابلة الأخبار والجهل بمعنى الاستخلاف، واتهام الرب بفعل غير الواجب في الحكمة، إذْ يجعل خليفة في الأرض يفسد صالحها، ويسفك دماء أوليائه فيها، ولتزكيتهم أنفسهم بالتسبيح والتقديس، وذلك ما حكاه الذكر الحكيم من قولهم :

(**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** (**٣٠**))(البقرة).

فرد عليهم سبحانه وتعالى على وجهِ التجهيل لهم:

(**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (**٣٠**))(البقرة).

ثمَّ أجزاهم التكليف الثاني بعد انهباطهم من دار القرار إلى دار الدوران ومقارنة الشيطان، جزاءً لاعتراضهم عليه فيما أخبرهم به، ووعدهم قبول التوبة في متابعة الهدى الآتي منه بقوله لهم:

(**فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**(**٣**))(البقرة).

وجعل ظاهر التكليف الثاني إصراً للمصريين على المعصية، ونوراً مُخرجاً من ظلمات الطبيعة للنفوس المنيبة إليه، ليُظهر في العاصين عدله، وفي المطيعين فضله.

وأفاد الهابطين أبصاراً ناظرة وأسماعاً واعية وعقولاً هاديةً، وهداهم النجدين ودلهم على المقامين، ونزَّه نفسه عن ظلمهم، بعد تقديم الحجة وإيضاح المحجة بقوله تعالى:

(**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿١١٨﴾)(النحل).

وأبان دعاءه لهم إلى الهدى وعَدْلَهم عنه إلى الضلالة بقوله تعالى:

(**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**(١٧))(فصلت).

فتمت كلمة ربك صدقاً فيما قضاه، وعدلاً فيما أمضاه، وجعل العلم والعمل جوادي التسابق في بلوغ غاية اللذات الروحانية، والجهل والكسل سبب السلوك في أليم العقوبات الجسمانية، ولم يفرض ما فرض مما تقدم ذكره إلاَّ لافتقار المخلوقين إليه ظاهراً وباطناً.

فإنَّه **فرض معرفته،** لتُعرف بها الأشياء، إذْ لا سبيل إلى معرفة حقيقة الصنعة، إلاَّ بعد إثبات الصانع لها، لأنَّها لم توجد إلاَّ منه، وهو صانع كل مصنوع، وقادر كل مقدور، ولا سبيل إلى معرفة الأِشياء إلاَّ بهِ، **وفرض توحيده** ليُفيد النفوس العلم بوحدته ويزيل عنها ظلمة الجهل به، **وفرض الإيمان** به في ستر غيبه،

ليحصل لها بذلك الخلاص، في مشاهدة شهادته، وتذكيراً للناس وإرشاداً إلى علامات من القدرة القاهرة والأنوار الباهرة. **وفرض الإسلام** إدخالاً للنفوس الشريرة تحت أوامر الأنفس الخيِّرة ليقُلَّ شرَّها وتنكسر شوكتها. **وفرض التصديق** بملائكته وكتبه ورسله، تنبيهاً للنفوس على شرف مقامات أهل الطاعة وعظم درجاتهم عنده، **وفرض طاعة** أولي الأمر بقوله تعالى:

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ(٥٩)**)(النساء).

ليأتمر مَن دونهم بأوامرهم، وينتهي عن نواهيهم، لتنتظم أحوال الوجود بسنتهم، وتكفَّ أكفَّ العداوات بسطوتهم. **وفرض الصلاة** ليزيل بها مقت الكبر من رؤوس المتكبرين، في السجود له والخضوع بين يديه. **وفرض الزكاة** ليواسي الأغنياء الفقراء مما أفاض الله عليهم من فضله فتصلح بذلك معايشهم. **وفرض الصيام** امتحاناً للنفوس بالصبر عن اللذات الحسية وتقويةً لاستعدادها لقبول اللذات القدسية، ولترقُّ به القلوب، وينقمع به سلطان الشر، وتلين قلوب الأغنياء للفقراء، بالا لآم الداخلة على نفوسهم من قبلِ الجوع. **وفرض الحج** ابتلاء للنفوس بالطاعة في التوجه إلى البيت الموضوع ببكة، كما ابتلى الملائكة بالسجود لمثل المثال المضروب من الحمأ المسنون، ليميِّز الطائعين من العاصين، وتنبيهاً على مقابلة شعائر العارفين، وليتشبّهوا بالطواف حوله بالطائفين بالبيت المعمور من ملائكة رب العالمين في ملكوت السماء. **وفرض الجهاد** لقطع دابر أهل الفساد من الكافرين. فهذه حكمة الله الظاهرة في ما شرَّع لعباده.

أمّا ما قاله العلامة الحراني (قُدّس سرّه):

" في حجته " كل إنسان إبليسه المزاج والكدر الذي فيه، ولكنهم يتفاضلون، لأنَّ هذا يشترك فيه المؤمن والكافر، ولكنه مع الكافر يستحيل النور ظلمةً بغلبة المزاج والكدر عليه، وذلك أنَّهُ جحد على علمٍ منه بطريق الهدى فاستحال مزاجه فصار إبليساً، ومع المؤمنين ممتزج غير مستحيل، لأنَّهم أقرّوا فآمنوا من الاستحالة، وهو يتفاضل فيهم بحسب الاستحقاق.

- وأيضاً ما أورده في هذا الموضوع **العماد الغساني (قُدّس سرّه)** حين سُئلَ عن علَّة الشرور التي نتج منها إبليس ؟

قال: هي ما ذكره الإمام الصادق (عليه السلام) في كتاب الأشباح والأظلَّة: إنَّ إبليس هو الجهل ومنه خُلقَ الجهل والشك والحيرة والمعصية والظلمة، لأنَّهُ ظلم نفسه فهو بحاله ليس فيه شيء من النور والعلم، بل مظلمٌ لا يخرج عن الظلمة والإنكار والجحود والكفر، ولا يرجع ولا يطيع إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وفي موضع آخر منه، إنَّ الله حين عصاه آخر خلق من خلقه من النور بردِّهم عليه، أهبطهم إلى الأرض، وخلق من توقفهم وحيرتهم وشكهم ومعصيتهم الأبدان الطينية، وخلق الشك من التوقف، وخلق النار من الشك، وخلق إبليس وذريته من النار في الأظلّة والأشباح، وخلق أبدانهم من الطين، فبيّن الإمام الصادق (عليه السلام): أنَّ إبليس خُلقَ من النار، فهي علته وعلّة النار الشك، وعلّة الشك الجهل، وقد يُسمَّى الشيء ببعض علله كما يُقال: إنَّ الإنسان تراب،

ويرادُ بهِ أنَّهُ يموت ويصير تراباً، أو أنَّهُ خُلِقَ من التراب، فيكون التراب علَّته، وعلى هذا فإنَّ إبليس خُلِقَ من الجهل، أو هو الجهل، وقد تُقلب العلّة معلولاً بالتسمية على طريق المجاز، كما نقول: أنَّ التراب من الأجسام، وعلى هذا نقول: إنَّ إبليس أصل كل شر وظلمة، وينبوع كل شك وحيرة وكفر.

ورأي الحكيم أنَّ علَّة الشرور عدم الخير، أو عدم إفاضة الخير، لأنَّه متى عَدُمَ الخير كان الشر، ومتى حصل في القوى مانعٌ من قبول إفاضة الخير توقع الشر، كالأعمى إنَّما عُدِمَ قبول صور المبصرات لعلَّةٍ داخلة على حاسة البصر، لا لأنَّ المبصرات ليست موجودة، وكالبيت المظلم نهاراً، لعدم انبثاق النور فيه، لا لأنَّ النور غير موجود، وكالجاهل إنَّما عُدِمَ العلم لعدم قبوله إياه، لا لأنَّ العلم غير موجود...إلى أن قال: لقول الإمام الصادق (عليه السلام): فمن وجدناه خالياً من قبول إفاضة الفوائد الإلهية، مُعرضاً عن الحكم الربانية، مُقبلاً على الشهوات البهيمية، مُشاركاً الحيوان في القوة الشهوانية، تحققنا أنَّهُ من الطينةِ الشيطانية لقوله تعالى: (**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ** (٨٤))(الإسراء).

وأورد العلامة الحراني في حجته (قُدّس سرّه)أيضاً:

أيضاً: عندما سُئل عن إبليس ومما خُلق؟ وما الفرق بين هذا الاسم والشيطان ؟ قال: اعلم أنَّ هذا الاسم يقع على معنيين: فإبليس المذكور الملعون في القرآن هو أول من جحد ونكر وكفر...كما حكى الذكر الحكيم: (**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**(١٢))(الأعراف).

وقد روي أنَّ إبليس خُلق من ظلمة، ولكن الرواية الأولى أثبت في العدل وأوضح في العقل، فإنَّهُ كان نورانياً من جملة الذين هبطوا إلى الأرض، وبإنكاره استحال ظلمة، ودليل ذلك قوله تعالى:

(**إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** (٥٠))(الكهف).

وأنَّه سأل الله الإنظار، فأنظره إلى الوقت المعلوم، وذلك جزاءً لما تقدم من إقرارِهِ، ودليل ذلك أنَّهُ لا بُدَّ في كل دعوةٍ ورسالةٍ ونبوةٍ، من ضدٍ وأعوانه وأتباعه وجنودِهِ، لأنَّ الاستطاعة التي كانت معه باقية لم يسلبه الله إياها، لأنَّهُ سأله الإنظار فأجابه...وهو يعمل بهذه الاستطاعة، لذلك أورد الذكر الحكيم أنَّهُ قال: (**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٨٢))(ص).

ثم استثنى فقال: (**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٨٣))(ص).

فقال سبحانه مبيّناً عجزه عن عباده المخلَصين وهم أهل التوحيد:

(**إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان** (٤٢))(الحج).

فأخبره وأبان له أنَّهُ لا يقدر أن يغويهم، وقال تعالى مخبراً عن استطاعته وأنَّها باقية معه بقولهِ: (**وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** (٦٤))(الإسراء).

فبيَّن بهذا القول أنَّ معه استطاعة، وأنَّ له خيلاً ورجلاً، أعاذنا الله وإياكم منه ومن حزبه ولفيفه وجنودِهِ وخيله ورجله.

وأمَّا الشيطان: فهو اسمٌ يقع على كل مبّرز في الكفر، وهذا الاسم مأخوذ من الطول والنهاية في الشيء، ألا ترى إذا قيل أنَّ فلاناً حاذقاً في صنعته قيل على سبيل المزاح ما هو إلاَّ شيطان، والشيطان في لغة العرب هو الرجل الطويل الأسود، وهو الشيظم أيضاً، وهو مأخوذ من الأشطان، وليس كل شيطان إبليس، لأنَّ الأبالسة قد استحالوا ظلمة ولم يبق فيهم شيء من إِسباب الهُدى إلاَّ وقد جحدوه وأنكروه، ولم يبقَّ شيء من الأسباب إلاَّ وقد عُرض عليهم، والشياطين قد بقي أسباب تُعرض عليهم. انتهى

- واختلف العلماء في ذكر الشيطان في القرآن الكريم، فمنهم من قال : بذمه أيّنما كان لأنَّهُ لا يقبل الخير والحمد مُطلقاً، ومنهم من قال: الشيطان أنواع بين العقلي والحسّي، والشيطان الحسّي قد يقدّم بعض الخدمات، وقد يقع عليه بعض الحمد بعمله هذا كما قالوا، واحتجوا بشياطين سيدنا سليمان (عليه السلام) لقوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** (٨٢)﴾ (الأنبياء).

وميّزوهم عن الشياطين معلمين الكفر في قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ**

أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾)(البقرة).

ومنهم من قال عليك بقرين الآية كما ورد في الأخبار عن الصادقين: إن كان قرين الاسم حمداً فحمد، وإن كان ذماً فذم، وإن كان لا حمد ولا ذم فالاسم مهملٍ " مُهمل " فهو من الذين قال تبارك وتعالى فيهم: (**وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢**))(التوبة).

- وقوله: (**وَآَخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦**))(التوبة).

فالقرينة التي ذكرها الله تعالى فهي تكون مع دليل، إذا رأيت الاسم قد وقع عليه كفر وعصيان أو سخط أو خزي أو لعنة أو طغيان وما كان من الأفعال المكروهة المنهى عنها، فاحكم على ذلك بالذم.

وإذا رأيت الاسم واقع عليه ذكر إيمان أو طاعة أو رحمة أو رضا أو مغفرة أو إقرار، فاحكم على ذلك الاسم بالحمد.

وإذا رأيت الاسم لا يقع عليه لا حمد ولا ذم، فاتركه للإهمال " الإمهال ".

الشيطان

فمن هو هذا الشيطان الذي شغل العلماء والمفكرين، وحذّرت منه الكتب السماوية والرسل ؟! وذُكر اسمه عشرات المرات في كتاب الله منها قوله تعالى:

﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)**﴾(البقرة).

﴿ **وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ(١٠٢)**﴾(البقرة).

﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا(١١٢)**﴾(الأنعام).

﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ (٦٨)**﴾(مريم).

﴿ **وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧)**﴾(المؤمنون).

﴿ **وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)**﴾(الأنعام).

﴿ **فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠)**﴾(الأعراف).

﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)**﴾(إبراهيم).

الشيطان لغةً:

إنَّ لفظة الشيطان من المصطلحات المتشابهة في الكتاب كما ورد، لها معنيان متباينان، يُعرف أحدهما من سياق الآية، فعندما تأتي اللفظة من فعل شطن النون من أصل الفعل، فهو على وزن " فيعال " وفعل شطن يعني البُعد، والشطن هو الحبل، لأنَّه بعيد ما بين الطرفين.

جاء في لسان العرب.

الشيطان: فيعال من شطن: إذا بَعُدَ فيمن جعل النون أصلاً، والشيطان معروف، وكل متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان، وقوله تعالى " طلعها كأنَّه رؤوس الشياطين، قال الزجاج: وجهه يعني أنَّ الشيء إذا استقبح شُبه بالشياطين، فيقال: كأنَّه وجه شيطان وكأنَّه رأس شيطان، وقد تُسمَّى الحية الدقيقة الخفيفة شيطاناً وجاناً على التشبيه.

وجاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس:

شطن: الشين والطاء والنون أصل مطرد صحيح، يدل على البعد ويقال للفرس إذا استعطى على صاحبه إنَّه لينزوا بين شطنين، وذلك أَنَّهُ يشده موثقاً بين حبلين.

وأمَّا الشيطان: فقال قوم: هو من هذا الباب والنون فيه أصلية، فسُميَّ بذلك لبعده عن الحق وتمرده، وذلك أن كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان، وقيل إذا كانت النون أصلية، فيكون الشيطان على وزن فيعال.

وجاء أيضاً في المعاجم.

شطنت الدار شطوناً: بُعدت – ويقال شطن عنه خالفه قصدهِ ووجهته وشطن الدابة: شدها بالحبل.

الشيطان: روح شرير مغوٍ ويطلق على كل متمرد مفسد ...

ويقال ركبه شيطان: غضب ولم يعبأ بالعاقبة.

وشيطان الشعر: ملهم الشاعر

وشيطان الفلاة: العطش.

وجاء معنى الشيطان بالعبرية من شطن أيضاً، وهو المقاوم والمعاند

وقال تعالى: (**يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧)**)(الأعراف).

– (**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠)**)(الأعراف).

– (**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآَنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾**)(النحل).

– (**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾**)(الزخرف).

هنا يأتي المعنى الثاني للشيطان وهو من " شاط – شيط" النون ليست من أصل الفعل.

– جاء في لسان العرب تتمة تفسير لفظة الشيطان: يُقال النون زائدة فإذا جعلته فيعالاً من قولهم تشيطن الرجل صَرَفتَهُ، وإن جعلته من شيط لم تُصَرّفه لأنَّه فعلان – وفي النهاية إن جعلت نون الشيطان أصلية كان من الشطن البعد عن الخير أو الحبل الطويل كأنَّه طال الشرُّ، وإن جعلتها زائدة كان من شاط يشيط: إذا هلك أو من استشاط غضباً إذا احتدَّ في غضبه والتهب.

وجاء في معجم مقاييس اللغة.

وإذا كانت النون فيه زائدة فيكون على وزن فعلان وأنَّه من شاط وقيل شيط، والشين والياء والطاء أصل يدل على ذهاب الشيء إمَّا احتراقاً أو غير ذلك، فالشيط من شاط الشيء، ومن الباب الشيطان يقارب الياء فيه الواو يقال شاط يشيط إذا بطل، وأشاط السلطان دم فلان إذا أبطله.

– جاء عند ابن عربي: الشيطان قسمان، قسم معنوي، وقسم حسّي، والحسي قسمان، شيطان أنسي، شيطان جني، يقول سبحانه:

(**شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ (١١٢)**)(الأنعام).

أمَّا ما أورده د. شحرور في كتابه حول هذا الموضوع

قال: إذا كان أصل اللفظة من شطن، ففي هذا المعنى مصطلح الشيطان مصطلح مادي موضوعي له وجود خارج الوعي الإنساني " وجود موضوعي " وهو على وزن فيعال.

وأمَّا من شاط أو شيط على وزن فعلان والنون زائدة، جاء الشيطان بهذا المعنى للدلالة على الباطل " الوهم " في الفكر الإنساني " وجود فكري " وهو نقيض الرحمن وبما أنَّ الشيطان الفعلاني هو اسم جنس، ولكل إنسان شيطانه الخاص، فلا يأتي في الكتاب إلاَّ على صيغة المفرد وليس الجمع.

وبما أنَّ الشيطان الفيعالي هو وجود مادي خارج الوعي الإنساني فيمكن أن يأتي في صيغة المفرد أو في صيغة الجمع، وعندما يأتي الشيطان في صيغة الجمع (شياطين) ينصرف معناها إلى الشيطان الفيعالي.

لذا فإنَّ مهمة الشيطان الفعلاني هي تحويل الحقيقة إلى وهم في الفكر، وزرع الفكر بالأوهام (المثالية)، فهي مهمة معرفية بحته ليس لها علاقة بالحلال والحرام (الحدود) .

أمَّا مهمة الشيطان الفيعالي (إبليس) فهي خارج الوعي الإنساني، وهي خلق ظروف موضوعية لحضِّ الناس على مخالفة الصراط المستقيم الذي له علاقة بالحلال والحرام {الحدود والأخلاق }. انتهى

- نستنتج من ذلك أنَّ الشيطان الفيعالي من شطن النون فيه أصلية هو شيطان حسي، والشيطان الفعلاني من شاط أو شيط النون زائدة هو شيطان عقلي، يبين ذلك طبيعة عمل الشيطان في الآية الواردة إن كان حسيَّاً أو عقليَّاً.

جاء في مصباح الشريعة

عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنَّه قال: لا يتمكن الشيطان بالوسوسة من العبد إلاَّ وقد أعرض عن ذكر الله تعالى واستهان وسكن إلى نهيه، ونسيَّ اطلاعه على سره، فالوسوسة ما تكون من خارج القلب بإشارة معرفة العقل ومجاورة الطبع، وأمَّا إذا تمكَن في القلب فذلك غيٌّ وضلالة وكفر، والله عزَّ وجلَّ دعا عباده بلطف دعوته وعرَّفهم عداوة إبليس فقال تعالى: ((**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**(٦))(فاطر). فكن معه كالغريب مع كلب الراعي يفزع إلى صاحبه من صرفه عنه، كذلك إذا أتاك الشيطان موسوساً، ليضلّك عن سبيل الحق وينسيك ذكر الله تعالى، فاستعذ منه بربك وبربه، فإنَّه يؤيد الحق على الباطل، وينصر المظلوم، لقوله عزَّ وجلَّ: ((**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** (٩٩))(النحل). ولن يقدر على هذا ومعرفة إتيانه ومذاهب وسوسته، إلاَّ بدوام المراقبة والاستقامة على بساط الخدمة، وهيبة المطّلع وكثرة الذكر، وأمَّا المهمل لأوقاته فهو صيدُ الشيطان لا محالة، واعتبر بما فعل بنفسه من الإغواء والاغترار والاستكبار حيث غرَّه وأعجبه عمله وعبادته وبصيرته وجرأتهِ عليه، وقد أورثه علمه ومعرفته واستدلاله بعقله اللعنة إلى الأبد، فما ظنك بنصحه

ودعوته غيره، فاعتصم بحبل الله الأوثق، وهو الالتجاء إلى الله تعالى، والاضطرار بصحة الافتقار إلى الله في كل نفس ولا يغرنَّك تزيينه للطاعة عليك، فإنَّه يفتح عليك تسعة وتسعين باباً من الخير ليظفر بك عند تمام المئة فقابله بالخلاف والصَّد عن سبيله والمضادة باستهوائه.

– وعن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي جهاد أحبُّ إلى الله ؟

فقال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه.

– وعن رسول الله (ﷺوآلهِ) وقد عاد المسلمون من بعض الغزوات فقال لهم : لقد عُدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال: جهاد النفس.

– وقال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): أتظنَّ أنَّ الذي نهاك دهاك، وإنَّما دهاك أسفلك وأعلاك، والله بريء من ذاك.

– وقال (عليه السلام): كل ما استغفرتَ الله منه فهو منك وكل ما حمدتَ الله عليه فهو منه.

– وقال (عليه السلام): لو عمل الله في خلقهِ بعلمهِ بهم ما احتج عليهم بالرسل.

– وقال رسول الله (ﷺوآلهِ): تفكروا في علم الملكوت يهرب الشيطان عنكم.

– وقال (ﷺوآلهِ): عالمٌ واحد أشدُّ على إبليس من ألف عابد.

– وقال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): ثلاث موبقات: الكبر، فإنَّهُ حطَّ إبليس عن مرتبته، والحرص، فإنَّهُ أخرج آدم من الجنة، والحسد، فإنَّهُ دعا ابن آدم إلى قتل أخيه.

– وروي أن إبليس يقول: إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لم أطالبه بغيرها، إذا أُعجب بنفسه، وإذا استكثر عمله، وإذا نسي ذنوبه.

– وجاء عن محي الدين بن عربي: أنَّ { الخواطر الشيطانية } أصلها هو المحظور فعلاً كان أو تركاً – ثم يليه المكروه فعلاً كان أو تركاً – ثم المندوب ثم الواجب ...الخ

فإذا خطرَ لك خاطر في محظور أو مكروه فتعلم أنَّه من الشيطان بلا شك، وإذا خطر لك خاطر في مُباح فتعلم أنَّهُ من النفس بلا شك، فخاطر الشيطان بالمحظور والمكروه، اجتنبه فعلاً كان أو تركاً والمباح أنت مخيَّرٌ فيه."

الخاتمة

لا نستطيع أن نتكلم عن المغيبات عنَّا إلاَّ بما أُخبرنا عنها، فمن ذلك اعتراض الملائكة على وجود خليفة لله في الأرض، واتهامها له بفعل غير الواجب، وتزكيتهم لأنفسهم بالتسبيح والتقديس.

– فهل هذا الاعتراض كان الفعل التمهيدي لظهور إبليس ؟

– أم أنَّ المسمَّى بالملائكة هي الأرواح المجرّدة قبل لبسها الأجسام ؟

وأنَّه عارضها خيال العجب بأنفسها وعبَّروا:

" أن هل خلق الله أشرف منهم وأكرم وألطف" ؟

فكان هذا الذنب الأول منهم على غير علم ومن ذلك خُلق إبليس مفعولاً عن نار العجب وبخار الأنفة ؟

وبعد أن خلق الله هذا الخليفة " والخلافة النيابة عن الغير، إمَّا لغيبة المنوب عنه، وإمَّا لموته، وإمَّا لعجزه، وإمَّا لتشريف المستَخلف، وعلى هذا الوجه كرَّمَ الله آدم وجعلهُ خليفة في الأرض، ونفخ فيه من روحه بعد أن سواه، هذه النفخة التي اختلف فيها الباحثون والمفكرون، فمنهم من قال: هي الروح، ومنهم من قال هي العقل والأنسنة، ومنهم من قال: أنَّها سرُّ الاستخلاف لما فيها من أسرار الألوهية وسر الإنسان الكامل أو كقول بعض الصوفيين الإله المتجسد أو تجسد الإله، وقالوا إنَّ النفخة الأولى كانت لآدم، والثانية للسيد المسيح وبها دُعي روح الله " أو الإله المتجسد "، فعرف الملائكة وأدركوا سر النفخة في آدم والحكمة

من ذلك، فسلموا للأمر وسجدوا، بعد أن أعلنوا الاستغفار، والاعتذار والافتقار، وأمَّا إبليس حَجَبَهُ تكبّره وتعززه بخلقهِ وأصله الناري على آدم وأصله الترابي عن رؤية نورانية آدم، وعن إدراك باطن النفخة والحكمة منها، فأبى السجود له وخالف الأمر الإلهي، فخرج من الجنة مذئوماً مدحوراً، ولما أن عَلِمَ من حقيقة آدم ما كان قد جَهِلَهُ أصرَّ على عنادِهِ وتكبّره وحسده، وأخذ يتحيَّن الفرص للإيقاع بهِ وإيهان عزيمته عن إطاعة أوامر وتعاليم من استخلفه وكرَّمه، كي يُخرجه من الجنة بمخالفتهِ كما حصل معه، ولما تمَّ لَهُ ما أراد من وسوسته لحواء وآدم وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، ولم يُدركا أنَّهما قد وقعا ضحية تغرير إبليس بهما إلاَّ بعد أن بانت سوءاتهما*[١٣] فخالفا الله فأخرجهما من الجنة وأهبطهم جميعاً إلى الأرض، وفيها كان الصراع المرير بين الشيطان وأتباعه وعناصره من جهة، وآدم وذريته من جهة أخرى.

لأنَّ إبليس يرى أنَّ آدم هو سبب ما فيه من دنو المنزلة وانحطاط المرتبة وخروجه من الجنة ولعنه وأدم يرى أنَّ إبليس هو سبب غوايته وخَداعه وشقائهِ وخروجهِ من الجنة، وقد خالف كليهما أمرِ اللهِ، أَحَدَهما عمداً ولم يتب وهو إبليس، والآخر جهلاً وتاب وهو آدم. فإذا كان إبليس سبب محنة آدم وهبوطه، وكل إنسان إبليسه معه، فعندما ينتصر عليه يعود إلى مكانهِ الأول في جنانِ الله.

---

[١٣] السوءة : الفعلة القبيحة أو كل عمل مشين.

فبعدما استعرضنا بداية إبليس والشيطان وأصله.

– فهل استطعنا أن نعي حقيقة وسوسته لنا، وأسلحته ضدنا، وجنوده علينا ؟

– وهل أعددنا أنفسنا لمحاربتهِ، وطرده من أرضنا بكل السُّبل المتاحة لنا ؟

– هل نَحْنُّ ونشتاقُ إلى عالمِنا السماوي الأول، عالم التقديس والتسبيح، عالم الروح المجرد ؟

أم استسلمنا لَهُ وانغمسنا في عالم المادة والشهوات والملذات الجسمانية، وزاد غلاف الروح كثافةً، وأخذ يقودنا إلى الهاوية ؟

– فهاتَ يدك يا أخي لتأخذ بيدي، لعلَّنا باتحادنا نفوساً وعقولاً وأرواحاً وبجميع قوانا نخلّص العالم من الشرِ وأصلهِ، ونُعيدُ التألق إلى أرواحنا الحبيسة بعد تحريرها من سجنها المادي.

أخوكم في الله محمود سليمان رمضان.

طرطوس. قرية الثورة .

ربيع الأول/١٤٣٠/آذار٢٠٠٩/م

المصادر

١. القرآن الكريم وبعض التفاسير

٢. الكتاب المقدس(التوراة. الإنجيل).

٣. تفسير الطبرسي الشيخ أبي الفضل الطبرسي

٤. تفسير ابن عربي الشيخ محي الدين ابن عربي

٥. تفسير البيضاوي القاضي ناصر الدين البيضاوي

٦. نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد

٧. رسائل أخوان الصفا والرسالة الجامعة الإمام احمد بن عبد الله

٨. بحار الأنوار للمجلسي

٩. تحف العقول محمد بن شعبة الحراني

١٠. الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد

١١. الملل والنحل للشهرستاني

١٢. دين الإنسان فراس السواح

١٣. مغامرة العقل فراس السواح

١٤. الرحمن والشيطان فراس السواح

١٥. الأسطورة والمعنى فراس السواح

١٦. موسوعة تاريخ الأديان فراس السواح

١٧. موسوعة العقائد والأديان مازن مغايري

١٨.لسان العرب ابن منظور

١٩.معجم مقاييس اللغة ابن فارس

٢٠.القاموس المحيط فيروز أبادي

٢١.مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني

٢٢.بؤس الحقيقة في أدب سلمان رشدي وصادق العظم أحمد عمران الزاوي

٢٣.الهفت الشريف للإمام الصادق

٢٤.معرفة الله والمكزون السنجاري د. أسعد. علي

٢٥.الاحتجاج للطبرسي

٢٦.الكتاب والقرآن د. محمد شحرور

٢٧.إبليس عباس محمود العقاد

٢٨.أديان العالم د. هوستن سميث

الفهرس